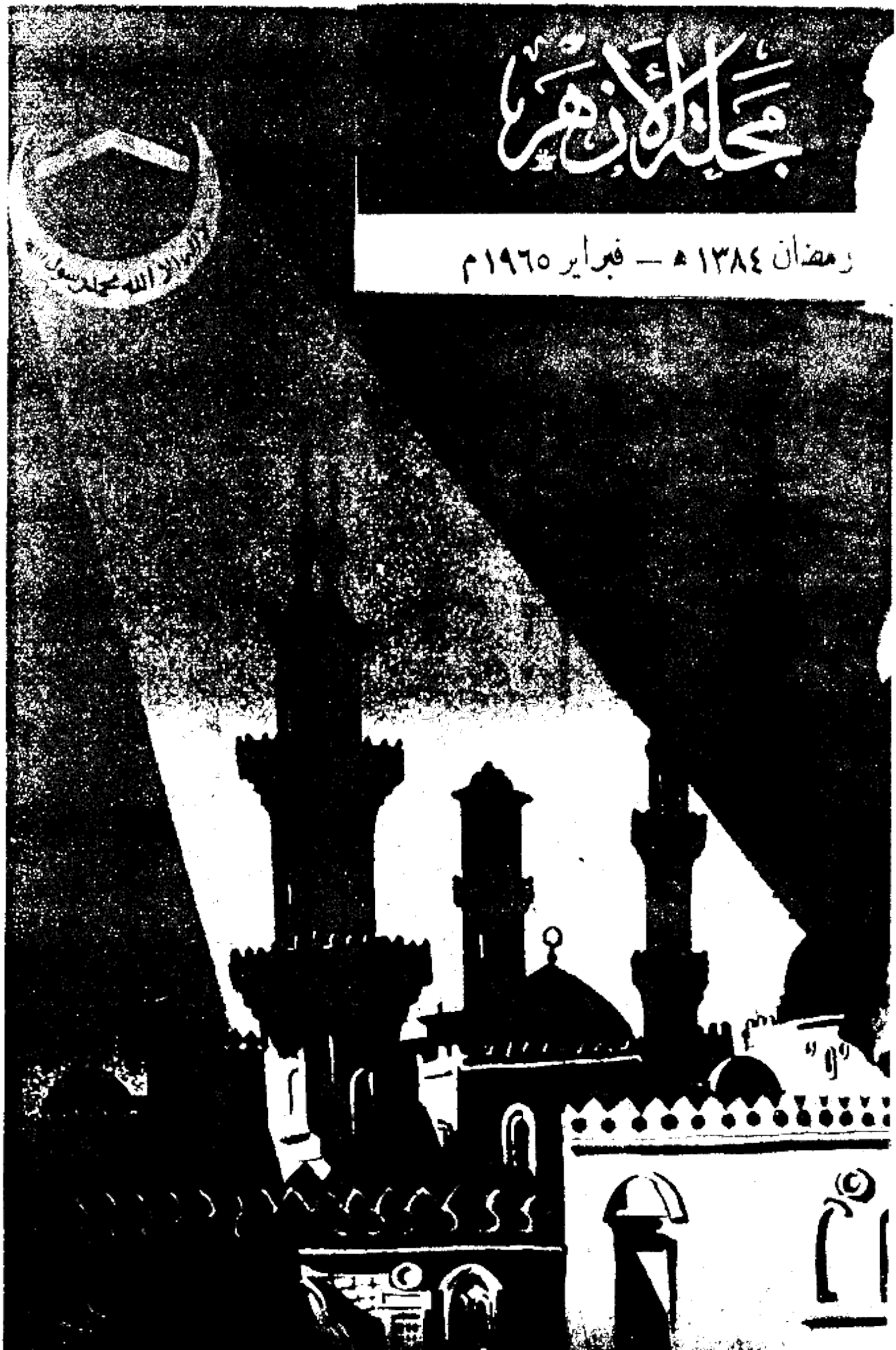
مجلة الأزهر
رمضان ١٣٨٤ هـ — فبراير ١٩٦٥م

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

الجزء السابع - السنة السادسة والثلاثون - رمضان سنة ١٣٨٤ هـ - يناير ١٩٦٥ م

أصول الفن الخطابي

بقلم : أحمد حسن الزيات

(إن في هذا لجوابا عن سؤال السيد عبد الحميد صبري رئيس جمعية الخطابة والتمثيل بالإسكندرية) .

عرفوا الخطابة بأنها : فن من فنون الكلام يقصد به التأثير في الجمهور ، عن طريق السمع والبصر معاً ، فما يدخل أثره من طريق السمع هو الأسلوب والإلقاء والصوت ، وما يدخل أثره من طريق البصر هو الوقفة والهيئة والحركة والملامح ، وتلك المؤثرات هي قوام هذا الفن وملاكه ، وسأقول كلمة وجيزة في كل ركن من هذه الأركان ، بقدر ما نكشف عن سر الجمال ، والفن فيه :

فالأسلوب الخطابي كالأسلوب الكتابي في أصوله وقواعده ، فكلاهما قائم على إيجاد الأفكار على نور العلم ، وتنسيقها على أصول المنطق ، ثم أدائها على مقتضى البلاغة . وكلاهما يختلف باختلاف الحال والغرض ، ولكن للسمع أسلوبا يمتاز من أسلوب القراءة بتخير الألفاظ المنسقة ، والجمل المنسقة ، والصور البيانية ، والأخيلة الشعرية ، والأساليب السهلة الطلية والاعتماد على العاطفة والشعور لا على العلم والمنطق ، والافتنان في تنويع الأسلوب والقصد فيه .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أما تخير الألفاظ المنسقة ، والجمل المنمقة والصور البلاغية ؛ فلأن كلام الخطيب لا يصل إلى الأذهان إلا عن طريق الآذان ، والأذن ذوق فى الجمال لا بد من مراعاته ومرضاته .

وأما استعمال الأخيلة الشعرية فلأنها تستهوى المشاعر ، وتسترق الخواطر ، وتملك على العقول مذاهب التفكير ؛ فلا تستطيع نقداً ولا نقضاً ولا معارضة ؛ وإنما تظل تحت سلطان الخطيب عاطلة ذاهلة ، حتى ينزلها على حكمه ، أو يسيرها على نهجه ورسمه .

وأما توخى الأساليب السهلة ؛ فلأن عقلية الجمهور السامع غير عقلية الفرد القارئ . فالقارئ لا يئوده عمق الفكرة ، ولا صعوبة العبارة ؛ لأنه يتذوق ما يقرأ بعقله ، فيقف ويتأمل ، ويعيد ويوازن ويستنتج ويحكم . وقد يترك الكتاب ليعود إليه مرة أخرى ولكن السامع سائر مع الخطيب ، مدفوع بتياره ، لا يملك التخلف عنه ، ولا الإفلات منه . فإذا كانت الفكرة أسمى من علمه ، والعبارة أقوى من فهمه ، انقطعت الصلة بينهما ، وفقدت الخطابة من التأثير بمقدار ما فقد السامع من التتبع والتأثر . وليس معنى السهولة أن يتبذل الخطيب ؛ فيستعمل ألفاظ السوقة ، ومعانى العامة ، فإن الفن جميل نبيل ، يرفع الجمهور إلى سمائه دون أن ينحط إلى حقارته وغبائه ، وأما الاعتماد على العاطفة والشعور دون العلم والمنطق ؛ فلأن العقول فى الجماعات تضطرب وتتبدد فلا يفيدها المنطق ولا يقنعها الدليل ، فإذا اشتملت الخطبة على حقائق العلم ، ودقائق الفلسفة ، دون أن يكون لها من العواطف روح وحرارة وحركة بعثت السآمة فى النفوس ، والبلادة فى الطباع فيستولى على الجمهور فتور كالجمود ، وسكون كالموت .

قال بوسويه : إن الأهواء والعواطف هى الخطيب فى الجماهير .

وقال ميرابو : سر البلاغة الخطابية أن يكون الخطيب ملتهباً بالعواطف .

وقال أعرابى لبعض الوعاظ ، وقد سمع موعظته فلم تقع من قلبه بموضع : يا هذا إن بقلبك شراً ، أو بقلبى .

وأما الافتنان فى تنويع الأسلوب ، فلأن النفوس تسأم النغمة الواحدة ، واللذة المتكررة ، والصور المتشابهة ، والأسلوب المسوق على نمط واحد ، فلا بد إذن للخطيب أن ينوع خطبته ، ويغير لهجته ، فيسجع فى مواضع التأثير ، ويترسل فى مواضع الإقناع ، ويعمد إلى التشبيه فى تقرير الحقيقة وإلى المجاز فى تصوير الخيال ، ويرسل الفكاهة الحلوة من حين إلى حين ، ليدفع سأم النفوس ، ويجدد نشاط السامع ، ويتعرف نفسية جمهوره ، فيجعل لكل مقام مقالا ، ولكل فهم منالا ، فيفصل ويكرر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويؤكد ويوجز ويطنب ، وكل أولئك فى جمال قصد ، وحسن ذوق ، وقوة بصيرة ولا تؤتى الخطابة إلا من طريق التطويل والحشو .

وروى الجاحظ : أن ابن السماك جعل يتكلم وجارية له تسمع ، فلما انصرف إليها سألها كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر تردده ، قال : أردده حتى يفهمه من لا يفهمه ، قالت : إلى أن يفهمه من لا يفهمه يكون قد سئمه من فهمه .

والعرب أميل إلى الإيجاز فى الخطب ؛ لتكون أعلق بالصدور ، وأذيع فى المحافل فلم يطل منهم إلا الأفذاذ والنوابغ ، كسحبان وائل ، فقد قيل : إنه خطب أمام معاوية من الظهر إلى صلاة العصر ، وسمعت المرحوم « سعد زغلول » يخطب أربع ساعات متواليات فى أربعين ألفاً من الناس ، فما توقف ولا كرر ولا استراح .

هذه بجمل الصفات التى يجب أن تراعوها فى صوغ الخطابة ، أما ما يجب فى الإلقاء : فالوضوح والطلاقة وتمثيل المعانى والعواطف بتغيير اللهجة وتنويع الصوت ، فيهدأ الخطيب ويثور ، ويبطئ ويسرع ، ويغضب ويعجب ويسأل ويجيب ، وكل ذلك مع اتقاء اللحن فى إعراب الكلام ، واللكنة فى إخراج الحروف ، وسلامة المنطق من الحبسة والفأفأة واللجلجة والتلعثم ، وما يقبح ذلك من كثرة التنحنح والسعال : والالتجاء إلى جمل الاستعانة كتكرير أيها السادة مثلا .

ولحسن الإلقاء أثر عظيم فى نجاح الخطبة ، فقد يكون أسلوبها نازلا عن مقام البلاغة فيرفعه الخطيب القادر بفصاحة منطقه ، وأناقة لهجته ، وجهارة صوته ، فيلذ السامع ويلهيه بجمال إلقائه عن قبح إنشائه .

وأما الصوت ، فهو طريق الفكرة إلى الأذن ، فلا بد أن يكون جهيراً حلو النغمة صافى الرنين ، خالص النبرات ، ويجب على الخطيب أن يعنى به ويقف على قوة ارتفاعه ومدى اتساعه ، حتى لا يكلفه فوق طاقته فيضمحل ويتهدج ، ويحسن مع ذلك أن يبدأ به فى انخفاض وتأن ، ثم يرفعه ويمده رويداً حتى يبلغ به أقصى قوته ، ثم يرده بين الصعود والهبوط مغيراً فى ميزانه ونغماته ووقفاته تبعاً للمعنى الذى يؤديه ، محاذراً أن يرسله إلى فوق ، أو يرمى به ذات اليمين أو ذات الشمال فيقبدد أكثره ، ويضعف أثره .

تلك هى المؤثرات السمعية ، وأما المؤثرات البصرية : فأولها الوقفة ، وشرطها أن يكون الخطيب فيها معتدل القامة ، مشرف الصدر إلى الأمام مقدما إحدى رجليه ، ليتم توازنه وينتظم تنفسه ، ويستقيم صوته ، ويحسن أن يقف قبل بدء الكلام وقفة المنتظر حتى يملك شعوره ، ويعرف جمهوره ، ويذهب أثر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أصوات أخرى : لا لا ! بل هم الذين احتجوا على الفساد ، ودافعوا عن الشعب . لقد قلبنا الملكية ؛ فليقل لنا لا مرتين أيريد أن يعطينا الجمهورية ؟

لا مرتين : الجمهورية ! ! ومن نطق بهذا الاسم ؟

- كلنا ، كلنا .

لا مرتين : الجمهورية ! وهل تعرفون ما تطلبون ؟ أتعرفون ما هو الحكم الجمهوري ؟

- قل لنا ! قل لنا ؟

لا مرتين : الجمهورية هي : حكم العقل ، فهل تشعرون أنكم أهل لأن تحكموا عقولكم ؟

- نعم نعم !

لا مرتين : الجمهورية هي حكم العدل ، فهل تشعرون أنكم تعدلون ، ولو في الحكم على أنفسكم .

- نعم نعم !

وسار لا مرتين في خطبته على هذا النمط العجيب من الذكاء النادر ، والجواب الحاضر ، والأخذ بمجامع الجمهور ، والاستيلاء على شعوره ورأيه من غير تحضير سابق ، ولا تلكؤ ظنين .

وازنوا بين ما سمعتم ، وبين ما حدث لفكتور هوجو في جلسة برلمانية كانت تدور على تعديل قانون الانتخاب ، وكان هوجو يكتب خطبه بلغة عالية ، ويستظهرها ثم يلقيها عن ظهر قلب . فإذا قوطع أثناء أدائها ارتج عليه ، أو أجاب بالهذر . وقف ذلك اليوم يخطب بعد ما احتشد للكلام وأعده ، فلم يكد يسترسل في خطبته حتى قاطعه أهل اليمين بالسخرية والتنادر ، فقال هوجو : أيها السادة : إن هذه المقاطعات المدبرة المنظمة ...

فقاطعه صوت من اليمين : كل ما في الأمر أننا نضحك !

صوت آخر : ذلك يهوش عليك خطبتك المحفوظة .

هوجو : إن الغرض من هذه المقاطعات تشتيت ذهن الخطيب .

صوت : قل حافظته ! حافظته !

هوجو : يريدون أن يسلبوا الخطيب حرية الفكر .

صوت - حرية الحفظ ! حرية الحفظ !

فوقف هوجو أمام الساخرين لا يحير جوابا . وهنا قال في خطبته التي هاجم بها قانون النفي .

« تأتي الثورة فجأة فيصير الأذكياء أقزاما » أجابه نائب معارض : « ويصير الأغبياء جبابرة » فلم يسعفه خاطره بالرد ؛ فأرسل إلى الرئيس نظرات الاستغاثة .

ولتلك البديهة المتخلفة فشل هوجو في ميدان الخطابة ، وكان تأثير خطبه في القارىء أشد منه في السامع . فأنتم ترون أن الخطيب السياسي ، والخطيب القضائي . إذا لم تؤاتهما العارضة الشديدة والرد الحاسم ، والحلم الرزين ، والجأش الرابط . كان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نجاحهما منيع الدرك ، لأن الخطب السياسية والقضائية - كما قلت - مثار الخصومة والجدل وموضع التأثير والحجة ، ولهذين النوعين وضعت القواعد ، وعليهما دارت مسائل هذا الفن ، وفيهما اشتهر الأفذاذ من رجاله . وهناك نوع ثالث يليهما فى القوة والبلاغة والأثر ، وهو الخطب الحربية ؟ غير أنها أوجز لفظا وأحكم نظما ، وأحوج إلى استفزاز العواطف . كخطبة طارق بن زياد فى فتح الأندلس مثلا .

وقد تغنى فى هذا النوع الجملة القصيرة المحكمة عن الخطبة الطويلة المرسلة ، كقول نابليون ، وقد دارت رحى الحرب بين جنوده وجنود مصر على مقربة من الأهرام : أيها الجنود اثبتوا ، فإن أربعين قرنا تنظر اليكم من فوق الأهرام . وكقول أحد القواد فى حرب الفاندى : أيها الجنود : إذا أنا أقدمت فاتبعونى ، وإن أحجمت فاقتلونى ، وإن مت فاثأروا لى » .

بقيت الخطب الدينية ، والخطب العلمية . أما الأولى ، فمدارها الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وتثقيف العقل بالحكمة والموعظة الحسنة واستمدادها من النصوص الشرعية ، والعلوم الكونية ، والفضائل النفسية وما أظن أحدا منكم يجهل نفسه لها ؛ فلتدعها إلى أهلها . وأما الأخرى ؛ وأعنى بها المحاضرات فهى أقوم حجة ، وأضوأ محجة ، وأهدأ بيانا وأسهل أسلوبا ؛ لأنها تقصد إلى التعليم لا إلى التأثير ، وإلى الإقناع لا إلى الإمتاع ، فلا تثير رغبا ولا رهبا ، ولا غضبا ولا رحمة . تعتمد على البحث العلمى والدليل المنطقى ، والتحليل النفسى ؛ فهى درس عام ، تبسط فيه الحقائق مفصلة محللة جلية لا يبدو لها استطراد ، ولا يفسدها نقص ، ولا تبهمها إحالة . فالمحاضر القدير يدرس موضوعه من جميع جهاته ، ويبحث عنه فى كل مظانه ، ثم يلم أطرافه ، ويجمع متفرقه ويدنى قصيه ، ثم يؤديه بأسلوب جذاب يثير الشوق ، ويدفع السأم ؛ فإن البلاغة صفة لازمة للمتكلم تلازمه فى كل موضع ، وتتفجر من قلبه وذهنه فى كل موضوع .

هذه جملة يسيرة من أصول الفن الخطابى لابد منها للناشىء البادىء . وقد عرضتها عليكم عرضا فى مبدأ الطريق لتجعلوا منها دليلا تتبعونه ، ونصحا تستشيرونه . ومرجع الأمر كله إلى الاستعداد والاجتهاد ، فثابروا وصابروا وخذوا أنفسكم بالمطالعة والمران ، وأشعروا قلوبكم الرغبة فى هذا الفن ، فإن الرغبة فى الشىء تسهل العصب ، وتخفف المئونة ، وتوفق بين الوسيلة والغاية ؟ .

أحمد حسن الزيات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حديث الإمام الأكبر للمسلمين في شهر رمضان

بسم الله أستفتح تهنئتي لكم، أيها المسلمون، بإقبال رمضان المعظم، وبالحمد لله ألهج على ماهدانا إليه من إيمان، وجمعنا عليه من إسلام، وأصلي وأسلم على من بعثه الله رحمة للعالمين، وجعله مسك الختام للأنبياء والمرسلين، وأسأله سبحانه أن يهبنا من مدده ما يعيننا على استقبال هذا الشهر الكريم على الله بما يناسب تشريف الله له، وتكريمه لأيامه ولياليه.

وهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، لأنه يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير، فهو بما أودع في خلقه من أسرار، يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، ويصطفي من المكان أول بيت وضع للناس ببكة مباركا، ويصطفي المسجد الأقصى الذي بارك حوله، ويصطفي الوادي المقدس طوى، وقد اصطفى من الزمان رمضان؛ فجعله خير شهر، واصطفى منه ليلة هي ليلة القدر، أنزل فيها القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان: «تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام».

وقد علمنا الله من فضل هذا الشهر ما شاء أن نعلم، وتعبدنا نهاره بالإمساك عما يحل من حاجة البطن ورغبة الجسد، حتى يروض نفوسنا على الإمساك عما يحرم، فإن النفوس إذا صدعت بأمر ربها، فامتنعت عن الحلالات سهل عليها أن تصدف طيلة أيامها عن المحرمات.

وإذا كان الصيام حرمان المادة بالجوع والعطش؛ ففيه إشباع الروح بالشفافية والإشراق؛ وعلى قدر ما في الصيام من سلبية لمقومات المادة من الغذاء، تكون الإيجابية لمقامات الأرواح في مراقي الصفاء، فالكثيفية الطينية إذا رقت تجلت اللطيفة الربانية وشفت؛ وحينئذ يكون الإنسان ملائكي الطبع، نوراني الخواطر، رباني السلوك، يذوق حلاوة الطاعة، ويحس مباهج الورع، وتنبسط نفسه للخير ونوازعه، وحسبه أن أهيج بشر أن يقول - كما علمنا الرسول -: «إني صائم».

وإذا حقق المسلم بصومه حكمة ربه، صلح جسده بصلاح قلبه، وعفت جوارحه عن محارم الله، وتنزهت أفكاره عن خواطر السوء، واستحق أن يكون صيامه أشرف أعماله، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به».

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أيها المسلمون : كل جمال الحياة فى حق يقال ، ويعمل له ، والحق جماعه التقوى ، ولهذا أجمل الله حكمة الصوم بقوله فى كتابه الكريم : « لعلكم تتقون » .

وكل مقابح الحياة فى وزر يذاع ، ويعمل به ، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم نقض الزور لحكمة الصوم حيث يقول : « من لم يدع قول الزور ، والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » وليس أحمق ممن يحرم نفسه الطعام والشراب ، ويحرم نفسه مع ذلك من الأجر والثواب .

أيها المسلمون : لا تضيعوا على نفوسكم حكمة الصوم عند ربكم ، فتحشدوا عند الإفطار ألوانا من الطعام والشراب ، تسرفون فيها كما ، وتفتنون فيها كيفا وتجمعون ما فاتكم من وجبات ، تزحمون بها موائدكم ، وتزهقون مواردكم ، فإنكم بهذا تتخمون ، وتعتادون على ما لا تقدرون ، وحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، وما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، ومع الجوع أى طعام مرىء ، ومع العطش أى شراب هنيء وقديما قيل : « نعم الإدام الجوع » :

أيها المسلمون : اذكروا عند فضول موائدكم من لا يجد كفافا ، وتحسسوا بأريحيتكم من لا يسأل الناس إلحافا ، والمؤمن كيس فطن ، يسبق بالنوال ولا يلجىء الفقير إلى ذل السؤال ، واجعلوا شكركم لنعم الله عليكم لطف بر ، وسماحة معونة ، حتى تكونوا أنتم ، والمحرومون فى نعمة الله سواء ، وكونوا للعوزين كما تحبون لو كنتم محتاجين وبهذا تكونوا خلفاء الله بحق ، يعطى بأياديكم ، ويتفضل الله عليكم بثوابكم ، ويفرح بتعاونكم وبكرمكم بحبه فالخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أرأفهم بعياله .

أيها المسلمون : إن الإيمان الذى وحد عقيدتكم فى إله واحد ، ووحد اتجاهكم فى الصلاة إلى كعبة واحدة ووحد دستوركم فى كتاب مبين ، وسنة مبينة ـ وحد بينكم فى الصيام ، فحين تسمعون (الله أكبر) مطلع الفجر تمسكون ، وحين تسمعون (الله أكبر) غروب الشمس تفطرون ، فيا له من جلال ، يحرم بكلمة ، ويحلل بكلمة ، فلو أنكم استقبلتم كل نواهى الله بالإعراض عنها ، وصددتم بأوامره ، فأقبلتم عليها لعشتم فى عالم فاضل ، ومجتمع سعيد ، قوامه مشاركة فى الخير وتعاون على البر وتواص بالحق والصبر ، تواجهون الأحداث بطاقات موحدة تتكامل وتتكافل وتسعى إلى نبيل الأهداف بحزم العاقل ، وعزم الغيور ، وبهذا تعيشون رحماء فيما بينكم ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين .

(البقية على صفحة ٧٨١)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

واكتفى فى شأنه بما ورد فى الفقه الذى يرجع إليه حين لا يرد فى القانون نص .

ويقال مثل ذلك فى الأحوال الأخرى .

والقوانين التى نصت على هذه الأحوال تحتاج أيضا فى تطبيقها إلى النظر والتقدير من القضاء ، والرجوع إلى الفقه ، وإلى واقع حال المطلق لضبط النظر والتقدير .

ومن ثم فلا نرى كبير فائدة فى النص على ما نصت عليه زيادة على ما ورد فى القانون المصرى .

هذا أهم الموضوعات التى يظهر فيها أثر التطور التشريعى ، فيما بين الفقهاء متقدميهم ومتأخريهم ، وفيما انتهى إليه التشريع القانونى المستند إليهم فى عصرنا الحاضر ، ولم نقصد استيعاب كل موضوع ، ولا التوسع فى ذكر التفصيلات والأدلة ، ولكن قصدنا ما يكون به التوضيح ، وبالله التوفيق ؟

محمد محمد المدنى

(بقية المنشور على صفحة ٧٧٧)

أيها المسلمون : إن سلوككم عرض تطبيق لمبادىء الإسلام ، فكونوا أمناء على هذا العرض ؛ لأنكم إذا انحرفتم عن الإسلام بسلوككم ، مكنتم أعداءه من التشكيك فى صلاحيته ، والاجتراء عليه بوافدات الإلحاد ، وخداعات المبادىء ، فكونوا كما أراد الله : أسوة حسنة ، ومثلا إسلاميا أعلى ، يلفت الدنيا إلى محاسن الإسلام ، ويعلم المخدوعين والمفتونين بأنه لا صلاح لدنيا الناس إلا بالدين .

أيها المسلمون : إنكم بصيامكم تنتصرون على نفوسكم ، وهى أعدى أعدائكم ، ومن انتصر على نفسه ، هان عليه أمر خصمه ، فخذوا من الصيام دربة فضال وطاقة كفاح ، وانفعالة جهاد ، وكونوا للضعيف حزبا ، وعلى المظلوم حربا حتى يطهر العالم من جنون التسلط ، وجبروت الاستعلاء ، وحتى ترفعوا تبعية المستضعفين إلى ذاتية المتحررين .

أيها المسلمون : قبل الله صيامكم وقيامكم ، وجعل لكم فيما تتلون من القرآن ، وتتدارسون من السنة ، هدى ونورا يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ووفقكم الله إلى صالح القول ، وسديد العمل وأعاد عليكم هذا الشهر كما تحبون ، وفوق ما تؤملون ، وأيد الله قادتكم ومكن لهم ، حتى يجمعوا على سلام الإسلام كل الدنيا ، وتكون كلمة الله هى العليا ؟

حسن مأمون
شيخ الأزهر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

التطورات التشريعية للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدني

٣ ـ طلاق السكران والمكره

— ٦ —

١ ـ في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المجنون حتى يعقل » وفي رواية : « وعن الصبي حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يفيق » . وفي رواية أخرى : « وعن الصبي حتى يحتلم » .

وهذا الحديث رواه أحمد ، والأربعة إلا الترمذي ، وصححه الحاكم ، وأخرجه ابن حبان.

ويدل هذا الحديث صراحة على أن المجنون لا يصح طلاقه كما لا يصح طلاق النائم والصبي .

ولذلك يقول ابن قدامة : أجمع أهل العلم على أن زائل العقل بغير سكر أو ما في معناه لا يقع طلاقه .

ثم اختلف الفقهاء في طلاق السكران بسبب ـ المعصية ـ على قولين :

الأول : أنه لا يقع ، وإليه ذهب عثمان ، وجابر ، ويزيد ، وعمر بن عبد العزيز ، وجماعة من السلف ، وهو مذهب أحمد ، وأهل الظاهر.

والثاني : أنه يقع ، وذلك يروى عن علي وابن عباس وجماعة من الصحابة ، وعن الهادي ، وأبي حنيفة والشافعي ومالك .

وقد استدل القائلون بعدم الوقوع ، بالحديث الذي ذكرناه ، قالوا : لأن العلة في عدم مؤاخذة المجنون في الحديث هي زوال العقل ، فلا يصح تكليفه ، وهذه العلة متحققة في السكران لأنه زائل العقل ، فهو غير مكلف ، وقد انعقد الإجماع على أن شرط التكليف العقل .

كما استدلوا بقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » فالله تعالى يجعل قول السكران غير معتبر ، لأنه لا يعلم ما يقول فيدل ذلك على عدم اعتبار قوله في الطلاق .

واستدل القائلون بوقوع طلاق السكران بهذه الآية نفسها حيث قالوا : إنها نهى عن قربان الصلاة حال السكر ، والنهي يقتضي أنهم مكلفون حيال سكرهم ، والمكلف يصح منه إنشاء الطلاق ، وأجيب : بأن الآية خطاب لهم حال صحوهم ، ونهي لهم قبل سكرهم وفي تفسيرها يقول صاحب المنار :

إن الخطاب موجه إلى المسلم قبل السكر بأن يجتنبه إذا ظن أنه ينتهي به إلى التلبس بالصلاة في أثنائه فهو أمر بالاحتياط ، واجتناب السكر في أكثر الأوقات » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تفسير المنار جزء ٥ ص ١١٣ .

كما استدل القائلون بالوقوع بأدلة أخرى ناقشهم فيها مخالفوهم .

ومن ذلك يعلم أنه لم يرد نص من كتاب أو سنة بوقوع طلاق السكران ، ويعلم أن المسألة خلافية ، وقد جد الخلاف فيها فى عهد التابعين ومن بعدهم ، وليس للصحابة فيها رأى إلا ما روى عن عثمان وغيره بعدم الوقوع على ما ذكرنا ، ويوجد فى كل مذهب من المذاهب الأربعة رأيان : رأى بالوقوع ، ورأى بعدمه .

* * *

وكذلك اختلف السلف فى طلاق المكره :

فجمهور العلماء يرون أنه لا يقع ويستدلون بقوله تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » ، فيقول الشافعى : إن الله لما وضع الكفر عمن تلفظ به حال الإكراه ، فكذلك يسقط عن المكره ما دون الكفر ، ويقول عطاء : الشرك أعظم من الطلاق ، أى فإذا وضع عن المكره ، فوضع الطلاق عنه أولى لأن الأعظم إذا سقط ، سقط ما هو دونه بطريق الأولى (راجع سبل السلام ج ٣ ص ١٧٧) .

وقد أخرج ابن ماجـــة ، وابن حبان ، والدار قطنى والطبرانى والحاكم فى المستدرك من حديث ابن عباس ، وحسنه النووى كما جاء فى نيل الأوطار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« رفع عن أمتى الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه » .

وهذا الرأى مروى عن على ، وعمر ، وابن عباس ، وابن عمر ، والزبير ، والحسن البصرى ، وعطاء ، ومجاهد ، وطاوس ، والأوزاعى ، والقاسمية ، والناصر ، والمؤيد بالله ، ومالك ، والشافعى ، كما ذكره صاحب نيل الأوطار .

ومن الفقهاء من يرى أن طلاق المكره يقع ، ويستدلون على هذا ببعض الأحاديث التى لا تنهض من جهة السند ، ولا من جهة الدلالة . كالذى يروى من أن رجلا جلست امرأته على صدره ، وجعلت السكين على حلقه ، وقالت له : طلقنى أو لأذبحنك ، فناشدها الله تعالى فأبت ، فطلقها ثلاثا ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال « لا قيلولة فى الطلاق » . أى : لا إقالة فيه ، فلابد من وقوعه .

وينقد ابن حزم هذا الخبر فيقول : إنه مروى عن صفوان ، وصفوان منكر الحديث ، وفى طريقه الغازى ابن جبلة ، وهو مغموز ، فهو خبر فى غاية السقوط .

وكذلك نقد ابن حزم حديثا آخر ، يقول : « كل الطلاق جائز ، إلا طلاق المعتوه المغلوب على عقله » ، فقال ابن حزم ، هذا الخبر الثانى شر من الأول ، لأنه مروى عن (عطاء بن عجلان) ، وهو مذكور بالكذب .

ومن أدلتهم أيضا أنهم قالوا : إن الفائت بالإكراه إنما هو الرضا ، أما تعمد اللفظ ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والنطق به فوجود ، وليس الرضا بشرط ، وذلك كطلاق الهازل فإنه واقع مع أن الرضا منه غير موجود .

ورد ذلك بأن المكره مخير بين الطلاق وأن يصيبه ضرر لا يقدر عليه ، قد يصل إلى الموت ، فهل يقاس بالهازل الذى يملك نفسه .

* * *

وقد رجح القانون المصرى رقم ٢٤ لسنة ١٩٢٩ رأى القائلين بعدم وقوع طلاق السكران والمكره .

فجاء فى المادة الأولى منه ما نصه .

(لا يقع طلاق السكران والمكره) .

كما جاء فى الفصل التاسع والأربعين من القانون المراكشى ما نصه :

(لا يقع طلاق السكران الطافح ، والمكره وكذلك الغضبان إذا كان مطبقا أو اشتد غضبه) .

وجاء فى المادة الثامنة والستين من قانون حقوق العائلة الأردنى ما نصه :

(طلاق السكران ، وطلاق المدهوش ، والطلاق الواقع بالإكراه غير معتبر) .

ونصت المادة التاسعة والثمانين من قانون الأحوال الشخصية السورى على ما يأتى :

(لا يقع طلاق السكران ، ولا المدهوش ، ولا المكره) .

ونصت المادة الخامسة والثلاثين من القانون العراقى على أنه (لا يقع طلاق السكران والمجنون والمعتوه والمكره ، ومن كان فاقد التمييز من غضب ، أو مصيبة مفاجئة ، أو كبر ، أو مرض .

* * *

وواضح أن القوانين المذكورة ، تزيد على القانون المصرى ، حالات أخرى لا يقع فيها الطلاق ، وهى حالات : الجنون ـ العته ـ والدهش والغضب ـ والمصيبة المفاجئة ـ والشيخوخة . والمرض .

ولكل حالة من هذه الحالات توجيهها الفقهى .

وإنما لم ينص القانون المصرى على هذه الحالات اكتفاء برجوع القاضى إلى الفقه فى شأنها ؛ لأن معظمها يرجع التقدير فيه إلى القضاء ، فليس الغضب فى مرتبة واحدة ، ولا الدهش ، ولا المرض ، ولا كبر السن ، ولا المصيبة المفاجئة ، ليس شىء من ذلك بمحدد حتى ينص عليه القانون ، فالغضب مثلا ، كما يقول ابن القيم على ثلاثة أقسام :

أحدها : أن يحصل له مبادئ الغضب ، بحيث لا يتغير عقله ويعلم ما يقول ويقصده وهذا لا إشكال فيه ، والثانى : أن يبلغ النهاية فلا يعلم ما يقول ، ولا يريد ، فهذا لاريب أنه لا ينفذ شىء من أقواله . الثالث : من توسط بين المرتبتين ، بحيث لم يصر كالمجنون ، فهذا محل النظر (ابن عابدين ج ، ص ٤٦٣) .

وإذا كان الأمر فى الغضب على هذه المراتب المختلفة ، فقد ترك القانون النص عليه ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

واكتفى فى شأنه بما ورد فى الفقه الذى يرجع إليه حين لا يرد فى القانون نص .

ويقال مثل ذلك فى الأحوال الأخرى .

والقوانين التى نصت على هذه الأحوال تحتاج أيضا فى تطبيقها إلى النظر والتقدير من القضاء ، والرجوع إلى الفقه ، وإلى واقع حال المطلق لضبط النظر والتقدير .

ومن ثم فلا نرى كبير فائدة فى النص على ما نصت عليه زيادة على ما ورد فى القانون المصرى .

هذا أهم الموضوعات التى يظهر فيها أثر التطور التشريعى ، فيما بين الفقهاء متقدميهم ومتأخريهم ، وفيما انتهى إليه التشريع القانونى المستند إليهم فى عصرنا الحاضر ، ولم نقصد استيعاب كل موضوع ، ولا التوسع فى ذكر التفصيلات والأدلة ، ولكن قصدنا ما يكون به التوضيح ، وبالله التوفيق ؟

محمد محمد المدنى

(بقية المنشور على صفحة ٧٧٧)

أيها المسلمون : إن سلوككم عرض تطبيق لمبادىء الإسلام ، فكونوا أمناء على هذا العرض ؛ لأنكم إذا انحرفتم عن الإسلام بسلوككم ، مكنتم أعداءه من التشكيك فى صلاحيته ، والاجتراء عليه بوافدات الإلحاد ، وخداعات المبادىء ، فكونوا كما أراد الله : أسوة حسنة ، ومثلا إسلاميا أعلى ، يلفت الدنيا إلى محاسن الإسلام ، ويعلم المخدوعين والمفتونين بأنه لا صلاح لدنيا الناس إلا بالدين .

أيها المسلمون : إنكم بصيامكم تنتصرون على نفوسكم ، وهى أعدى أعدائكم ، ومن انتصر على نفسه ، هان عليه أمر خصمه ، فخذوا من الصيام دربة فضال وطاقة كفاح ، وانفعالة جهاد ، وكونوا للضعيف حزبا ، وعلى المظلوم حربا حتى يطهر العالم من جنون التسلط ، وجبروت الاستعلاء ، وحتى ترفعوا تبعية المستضعفين إلى ذاتية المتحررين .

أيها المسلمون : قبل الله صيامكم وقيامكم ، وجعل لكم فيما تتلون من القرآن ، وتتدارسون من السنة ، هدى ونورا يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ووفقكم الله إلى صالح القول ، وسديد العمل وأعاد عليكم هذا الشهر كما تحبون ، وفوق ما تؤملون ، وأيد الله قادتكم ومكن لهم ، حتى يجمعوا على سلام الإسلام كل الدنيا ، وتكون كلمة الله هى العليا ؟

حسن مأمون
شيخ الأزهر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

النظام الاقتصادى فى الإسلام

ووضعه بين النظم الاقتصادية الحاضرة

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

ترجع أهم الأوضاع الاقتصادية المطبقة فى الوقت الحاضر إلى ثلاثة نظم ، يطلق عليها أسماء : الشيوعية والرأسمالية والاشتراكية .

وتبدو أهم مظاهر الخلاف بين هذه النظم فى موقف كل نظام منها حيال الملكية وأنواعها وحقوقها وواجباتها .

وذلك أن الملكية تنقسم قسمين : ملكية فردية ، وملكية جماعية .

فأما الملكية الفردية : فهى التى يكون المالك فيها فرداً معيناً بذاته ، أو أفراداً معينين بذواتهم .

وأما الملكية الجماعية فهى التى لا يكون المالك فيها فردا معينا ، ولا أفراداً معينين بالذات ، وإنما يكون شخصاً اعتبارياً مفروضاً فيه الاستقرار والبقاء ، كالأمة والدولة والعشيرة والقبيلة والجمعية ... وما إلى ذلك ، فحينما يقال مثلا : إن هذه الأرض ملك للدولة أو الأمة ، يكون معنى ذلك أنها ملك الشخص الاعتبارى المتمثل فى الدولة أو الأمة والمفروض فيه الدوام والبقاء على الرغم من فناء الأفراد الذين يتمثل فيهم وتجددهم جيلا بعد جيل .

ونظام الملكية الجماعية معترف به فى جميع الأمم والشرائع ، فليس ثمة شريعة إنسانية لا تقر الملكية الجماعية فى صورة ما ، وليس ثمة أمة قديمة ولا حديثة لا يوجد فيها مظهر ما من مظاهر هذه الملكية .

وإنما الخلاف بين النظم الاقتصادية فى هذه الناحية ينحصر فى موقفها حيال النوع الثانى من الملكية وهو الملكية الفردية

فالنظام الشيوعى لا يقر الملكية الفردية على الإطلاق أو لا يقرها إلا فى أمور ليست ذات بال فى الإنتاج بجميع الملكيات أو بعبارة أدق جميع الملكيات ذات الأهمية فى الإنتاج ملكيات جماعية فى هذا النظام ، تملكها الدولة نفسها ، وتوزع الجهود اللازمة لاستغلالها ونتائج ثمراتها على أفراد الشعب وفق ما ترتضيه من نظم وأوضاع .

والنظامان الآخران ، وهما النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكى ، يقران الملكية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الفردية فى المنقول والعقار ، ومختلف مصادر الإنتاج .

ولكنهما مع ذلك يختلفان فى موقف كليهما حيال حقوق هـــذه الملكية وواجباتها .

وذلك أن الملكية الفردية تمنح صاحبها مبدئيا حقوقا كثيرة ، يرجع أهمها إلى أربعة حقوق ، وهى : الدوام ، وحرية النوع ، وحرية المقدار ، وحرية التصرف .

أما حق الدوام : فمعناه بقاء الملكية ما بقيت العين المملوكة ، وهذا الدوام يكون أحيانا دواماً حقيقياً ، وأحيانا يكون دواما اعتبارياً فيكون دواماً حقيقياً إذا كانت العين المملوكة قابلة للاستهلاك وأتيح لصاحبها أن يستهلكها فى حياته ، ففى هذه الحالة يصدق على الملكية أن يد مالكها بقيت مسيطرة عليها طول المدة التى استغرقها بقاؤها ، ويكون الدوام اعتبارياً إذا كانت العين المملوكة غير قابلة للاستهلاك كالأراضى والعقار ، ويموت صاحبها ، وهى لا تزال باقيـــة ، أو قابلة للاستهلاك ولم يتح لمالكها أن يستهلكها فى حياته ، ففى هذه الأحوال يتحقق الدوام فى صورة اعتبارية تواضعت عليها شرائع الأمم التى تقر الملكية الفردية ، وذلك بأن تنتقل العين بعد وفاة مالكها إلى من يوصى هو بانتقالها إليه أو إلى من تقرر النظم الاجتماعية انتقالها إليهم عن طريق الميراث فى كلا الحالين لا يعتبر هذا الانتقال تملكا جديداً من جميع الوجوه ، بل يعتبر بمثابة امتداد لتملك الأول ، لتحقيقه لرغبة المالك الأصلى فى حالة الوصية ولتعلقه بأفراد يمتون للمالك الأصلى بلحمة قرابة قوية ، تجعلهم صورة متجددة منه فى حالة الميراث . فكأن هؤلاء وأولئك يمثلون المالك الأول ، وكأن الملكية الأولى نفسها لا تزال قائمة ، وإن لبست ثوباً آخر غير ثوبها القديم .

وأما الحق الثانى ، وهو حرية النوع : فمعناه أن يكون للمالك الفردى الحق فى أن يحوز من أنواع الممتلكات ما يشاؤه وتسمح به إمكانياته .

وأما الحق الثالث : وهو حرية المقدار ، فمعناه : أن يكون للمالك الحق فى تملك أى مقدار ، بالغة ما بلغت قيمته .

وأما الحق الرابع : وهو حرية التصرف فمعناه : أن يكون للمالك الحق فى أن يفعل فى ملكه ما يشاء وفى أن يهمله ، فلا يفعل فيه شيئا ، فحرية التصرف لها وجهان : وجه إيجابى ، ووجـــه سلبى ، ويتمثل وجهها الإيجابى فى أمور كثيرة : من أهمها استغلال الشىء المملوك ، واستهلاكه ، وإبادته وبيعه ، وهبته ، وإعارته ، وتأجيره ، والوصية به ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ووقف غلته على فرد أو أفراد ، أو هيئة ما بعد الوفاة ... وهلم جرا .

هذا ولا توجد شريعة من الشرائع التي تقر الملكية الفردية تمنح المالك الحقوق السابق ذكرها في صورة مطلقة وتعفيه من الواجبات بل إن كل شريعة منها تعمد إلى كل حق من هذه الحقوق فتقيده في سبيل الصالح العام وحماية حقوق الآخرين ، وانتفاء الضرر والضرار ، وتفرض بجانب ذلك على المالك عدة واجبات يؤديها للدولة وللمجتمع في مقابل ما بقي له من حقوق .

غير أن النظامين اللذين يقران الملكية الفردية . وهما : النظام الرأسمالي ، والنظام الاشتراكي ، يختلف كلاهما عن الآخر في مبلغ القيود التي يقيد بها حقوق الملكية الفردية ومبلغ ما يضعه على كاهل المالك الفردي من واجبات وأعباء .

فالنظام الرأسمالي لا يمس الحقوق السابق ذكرها إلا برفق ، وفي حدود ضيقة وكذلك يخفف ما أمكنه التخفيف فيما يضعه على كاهل المالك الفردي من واجبات وأعباء . وبالجملة يجنح إلى تغليب ناحية الحقوق في الملكية الفردية على ناحية الواجبات ، ففي النظام الرأسمالي في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا لا توجد إلا قيود ضئيلة على الحقوق السابق ذكرها ، وفيما عدا هذه القيود الضئيلة يجوز للمالك الفردي أن يوصي بملكه لمن يشاء ولما يشاء (حق الدوام) وأن يملك أي نوع من الممتلكات ، ولذلك نسمع في الولايات المتحدة بملوك البترول الذين يملكون حظا كبيرا من آبار البترول في العالم ، وملوك الصلب الذين يملكون معظم مصانع الصلب وملوك السكك الحديدية ، وملوك البنوك ، وملوك الصحافة ... وهلم جرا (حرية النوع) وأن يملك أي مقدار بالغة ـ ما بلغت ـ قيمته ولذلك نسمع في هذه البلاد بأصحاب الملايين الذين يملكون ما تبلغ قيمته عدة ملايين من الدولارات ، وبأصحاب المليارات الذين يملكون ما تبلغ قيمته عدة مليارات ، أي عدة آلاف من ملايين الدولارات (حرية المقدار) ؛ وليس ثمة قيود يعتد بها على حرية التصرف الإيجابي والسلبي في الملكية الفردية في هـــذه البلاد ، وكذلك يحرص نظامها الرأسمالي على تخفيف الواجبات والأعباء التي يضعها على كاهل المالك الفردي ، ففي ظل النظام الرأسمالي يطلق العنان لرأس المال ، فيطغى ويسيطر على شئون الإنتاج والاقتصاد على العمل ، بل قد يسيطر كذلك على شئون السياسة والاجتماع ، وتتحقق ظاهرة الثراء الفاحش لبعض الناس ، وتتسع الفروق المالية بين الأفراد والطبقات نظراً لإطلاق حرية التملك ، وحقوق المالك الفردي ، مع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

اختلاف الناس بعضهم عن بعض فى كفاياتهم ومواهبهم ، وما يتاح لكل منهم من فرص وظروف .

على حين أن النظام الاشتراكى يكثر من القيود التى يقيد بها حقوق الملكية الفردية ، ومن الأعباء التى يضعها على كاهل المالك الفردى: وبالجملة يجنح إلى تغليب ناحية الواجبات على ناحية الحقوق . فى النظم الاشتراكية يقيد حق المالك بقيود كثيرة فى شئون الوصية والميراث ... وما إليهما (تقييد حق الدوام) ؛ ويضيق من نطاق الملكية الفردية ؛ فيستثنى منها أمورا كثيرة ، تعمد هذه النظم إلى تأميمها أى إلى جعل ملكيتها ملكية جماعية للأمة (تقييد حرية النوع) ؛ وقد توضع حدود قصوى لما يجوز للمالك أن يملكه من بعض الأشياء ، أو لما يجوز أن تصل إليه قيمة ممتلكاته جميعها (تقييد حرية المقدار) ؛ وتتدخل الدولة كذلك تدخلا كبيراً فى شئون البيع ، والإجارة والهبة والاستغلال والاستيراد والتصدير .. وما إلى ذلك (تقييد حرية التصرف الإيجابى) ؛ ويحظر على المالك أن يهمل بعض الممتلكات ، ويتركها بدون استغلال ولا انتفاع (تقييد حرية التصرف السلبى) . وفضلا عن هذا كله، تحرص النظم الاشتراكية على فرض كثير من الواجبات والأعباء على المالك الفردى . وترجع أهم هذه الواجبات إلى ما تفرضه من رسوم وضرائب تصاعدية على التركات والأيلولة ، والمهن التجارية ، والمهن الحرة غير التجارية ، وكسب العمل ، والإيراد العام . وترمى النظم الاشتراكية من وراء ما تضعه من قيود على حقوق الملكية الفردية وما تفرضه من واجبات على كاهل المالك الفردى إلى تقليم أظافر رأس المال ، وتجريده من وسائل السيطرة والنفوذ ، واستقرار التوازن الاقتصادى ، وتحقيق تكافؤ الفرص ، وتقليل الفروق المالية بين الطبقات والأفراد ، وتقريب الطبقات بعضها من بعض ، والأفراد بعضهم من بعض ، واتقاء تضخم الثروات ، وتجمعها فى أيد قليلة :

والنظم الاشتراكية أنواع مختلفات : فمنها ما لا يبعد كثيراً عن النظام الرأسمالى ؛ ومنها ما يمعن فى تقييد حقوق الملكية الفردية ، وفى إكثاره من واجباتها ؛ حتى إليكاد يقضى عليها ، ويشل حركتها ؛ فيقرب بذلك من النظام الشيوعى ؛ ومنها ما هو وسط بين هذا وذاك .

* * *

هذا ، وقد وضع الإسلام فى شئون الاقتصاد نظاما حكيما ، يقوم على الدعائم الثلاث الآتية :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

١ — الدعامة الأولى تتمثل فى : إقرار الملكية الفردية وحمايتها . فالإسلام يقر الملكية الفردية ، ويذلل أمام الفرد سبل التملك ، والحصول على المال ، ويعطى كل مجتهد جزاء اجتهاده من ثمرات الحياة الدنيا ، ويفسح المجال أمام المنافسة ، والعمل على التفوق . وبذلك يحقق تكافؤ الفرص بين الناس فى هذه الميادين . ولا يكتفى الإسلام بإقرار الملكية ، وتيسير سبل الحصول عليها ، بل يحيطها كذلك بسياج قوى من الحماية ، كما تدل على ذلك الحدود والعقوبات الدنيوية والأخروية التى يقررها مختلف أنواع الاعتداء على الملكية الفردية ؛ كالسرقة ، وقطع الطريق ، والغصب ، ونقل حدود الأرض ، ... وما إلى ذلك ؛ بل إن الإسلام لينهى عن مجرد النظر بعين نهمة إلى ملكية الغير ، وفى هذا يقول الله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ... » . وفى سبيل حماية الملكية الفردية يجيز الإسلام للمالك أن يدفع عن ملكه بكل وسائل الدفاع ، حتى لو ألجأه ذلك إلى قتل المعتدى ، وفى هذه الحالة لا قصاص عليه ، وإذا قتل هو يموت شهيداً ، وفى هذا يقول الرسول عليه السلام : « من قتل دون ماله فهو شهيد » .

٢ — ولكن الإسلام مع إقراره للملكية الفردية ، وحمايته لها ؛ يعمد إلى حقوقها فيقيدها بقيود كثيرة ، ويضع على كاهل المالك — فى مقابل ما يتى له من حقوق — عدة واجبات يؤديها للدولة ، وللمجتمع ، وللعوزين من الناس . ويقصد الإسلام من وراء ما يضعه من قيود على حقوق هذه الملكية ، وما يقرره من واجبات على مالكها إلى أغراض سامية . فبفضل هذه القيود ، وهذه الواجبات ، يكفل الإسلام تحقيق العدالة الاجتماعية ، وإقرار التوازن الاقتصادى ، وتقليل الفروق بين الطبقات ، وتقريبها بعضها من بعض ، واتقاء تضخم الثروات وتجمعها فى أيد قليلة ، وتجريد رأس المال من وسائل الجبروت ، والطغيان ، والسيطرة على شئون الحياة .

فقد قيد الإسلام حق الدوام بما وضعه من نظم للميراث والوصية . فوضع للميراث نظاما حكيما يكفل توزيع الثروات بين الناس توزيعا عادلا ، ويحول دون تضخمها ، وتجمعها فى أيد قليلة ، ويعمل على تقليل الفروق بين الطبقات والأفراد . وذلك أن يقسم التركة على عدد كبير من أقرباء المتوفى ، فيوسع بذلك دائرة الانتفاع بها من جهة ، ويحول من جهة أخرى دون تجمع ثروات كبيرة فى يد فئة محدودة من الملاك ، ويقرب طبقات الناس بعضها من بعض . فهو يورث الأبناء والبنات ، والآباء والأمهات ، والأجداد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والجدات ، والأزواج والزوجات ، والإخوة والأخوات ، والأعمام وأبناء الأعمام ، وأبناء الإخوة وأولاد الأبناء ، بل يورث ذوى الأرحام أنفسهم فى بعض الأحوال . فبفضل هذا النظام الحكيم لا تلبث الثروة الكبيرة التى يتفق تجمعها فى يد بعض الناس أن تتوزع بعد بضعة أجيال على عدد كبير من الأنفس ، وتستحيل إلى ملكيات صغيرة . وهذه هى أمثل طريقة لتقليل الفروق بين الطبقات والأفراد ، وتحقيق التوازن الاقتصادى ، وعلاج ما عسى أن يطرأ على هذا التوازن من اضطراب . وقيد الإسلام كذلك حق المالك فى الوصية حتى لا يتلاعب فى قواعد الميراث ويحول دون تحقيق أغراضها السابق ذكرها ، فقرر أنه لا تصح إلا فى حدود الثلث من الوصية (١) .

وقيد الإسلام كذلك أنواع الملكية الفردية ، فأخرج من نطاقها الأشياء التى لا يتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خاص كبير ، وتكون ضرورية لجميع الناس ، وأوجب أن تكون ملكيتها ملكية جماعية ، حتى لا يستبد بها فرد أو أفراد ، فيضار المجتمع من جراء ذلك ، وقد عد الرسول عليه السلام من هذا النوع أربعة أشياء وهى : الماء والكلأ والنار والملح ، وقاس عليها الفقهاء نظائرها ، مما تتوافر فيه صفاتها وحكمتها كالطرق والجسور والخزانات والآثار القديمة ... وما إلى ذلك . بل لقد قاس عليها (الإمام مالك) جميع ما يوجد فى باطن الأرض من معادن صلبة أو سائلة حتى لو كانت الأرض نفسها مملوكة لبعض الناس ، وحجته فى ذلك أن مالك الأرض إنما يملك ظاهرها دون باطنها ، ولأنه يملك ما تستعمل فيه الأرض عادة وهو الزرع والبناء وليس من الانتفاع المعتاد بالأرض استخراج المعادن منها ، ولأن المعادن هى وديعة الله فى الأرض ، فتكون لكل خلقه لا يختص بها إنسان دون آخر ولأنها من الأمور ذات النفع العام ، فهى تشبه الأمور التى ذكر الرسول عليه السلام أنه لا يصح أن يستأثر أحد بملكيتها ، ولأنها لا توجد إلا فى مواطن خاصة ، والناس جميعا فى حاجة إليها ، فلو أجيز تملكها تملكا فرديا لنال الناس من جراء ذلك ضرر كبير ، ورأى الإمام مالك فى هذا الصدد هو أمثل الآراء ، وأكثرها اتساقا مع روح الشريعة الإسلامية .

وقيد الإسلام كذلك حرية التصرف بقيود تحقق الأغراض السابق ذكرها ، وتكفل

---

(١) وتكون لغير وارث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا وصية لوارث » وبذلك يتوزع جزء من المال على غير الوارثين فيزيد الانتفاع .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عدم الإضرار بحقوق الآخرين وبالصالح العام فحرم الإسلام على المالك كل تصرف فى ملكه يؤدى إلى ضرر عام أو خاص أو ينطوى على اعتداء على حرية الآخرين . وذهب الإسلام فى هذه السبيل إلى حد أنه يجيز نزع الملكية من صاحبها إذا أساء استخدام حقه فيها . ولم يكن ثمة وسيلة أخرى لمنعه من ذلك .

ووضع الإسلام على كاهل المالك الفردى فى مقابل ما بقى له من حقوق واجبات وأعباء كثيرة يؤديها الدولة والمجتمع والصالح العام وللعوزين من الناس كزكاة النقد والأنعام وعروض التجارة وحاصلات الزراعة والخراج والضرائب والكفارات المالية والصدقات الموسمية كزكاة الفطر والصدقات المستحبة التى لا تكاد سورة من القرآن تخلو من الحث عليها وبيان عظيم أجرها يوم القيامة وتدل آيات كثيرة من القرآن على أن الإسلام ينظر للملكية الفردية على أنها مجرد وظيفة يقوم صاحبها بأداء حقوقها وإنفاق المال على مستحقيه وينظر إلى المالك على أنه مستخلف على ثروته من قبل الله لإنفاقها فى سبيله وفى هذا يقول الله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

٣ — وأما الدعامة الثالثة فتتمثل فى الأسس العامة التى يقيم عليها الإسلام العلاقات الاقتصادية بين الناس ، وذلك أن الإسلام لا يقيم هذه العلاقات على أسس مادية ، كما تفعل النظم الأخرى ، وإنما يقيمها على أسس إنسانية خلقية ، يتحقق بفضلها : التكافل ، والتعاون ، والتحاب ، والتواد والتراحم بين الناس بعضهم مع بعض ، والتواصى بالبر والخير ، والعدل والإحسان واحترام الشخصية الإنسانية التى كرمها الله فينظر كل فرد إلى الآخر على أنه غاية لا على أنه وسيلة ، تستخدم لجلب المنفعة ، ويحب كل فرد لغيره ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه ، وبذلك يضع الإسلام أمثل نظام للضمان الاجتماعى .

وفى هذه السبيل يحرم على الإنسان كل تصرف اقتصادى يجافى هذه المبادئ ، فيحرم الربا والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل ، والغش فى المبيعات ، وإخفاء عيوبها ، وتطفيف الكيل والميزان واحتكار السلع الضرورية ، والتحكم فى أسعارها ، واستغلال النفوذ ، والسلطان للحصول على المال ... وما إلى ذلك من طرائق الكسب التى تنبو عن الخلق الكريم ، ولا تتفق مع واجب الإنسان نحو أخيه الإنسان .

وفى هذه السبيل كذلك يوجب الإسلام

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

على الأغنياء من الأقرباء أن ينفقوا على الفقراء والمساكين والعاجزين عن الكسب من أقربائهم ، ويوجب على أهل كل حى أن يعيش بعضهم مع بعض فى حالة تكافل وتعاضد ، يرق غنيهم لفقيرهم ويسد شبعانهم حاجة جائعهم ، حتى لقد ذهب جماعة من الفقهاء على رأسهم (الإمام ابن حـــزم) إلى مسئولية البلد الذى يموت أحد أفراده جوعا فيدفع أهله الدية إلى أسرته متضامنين كأنهم شركاء فى موته ويوجب فى حالة الشدة والضرورة أن يعود القادر على المحتاج بما يسد حاجته ؛ ويحث الجار على الإحسان إلى جاره ، ولو لم يكن من أقربائه ، ولو كان على دين غير دينه ، ويوجب على بيت المال الإنفاق على الزمن وهو العاجز عن الكسب وعلى الشيخ الفانى ، وعلى المرأة إذا لم يكن لواحـــد من هؤلاء من تجب عليه النفقة من أقربائه ، ولا يفرق الإسلام فى ذلك بين المسلم وغير المسلم .

* * *

والنظام الاقتصادى فى الإسلام ليس إذن نظاما شيوعياً لأنه يقر الملكية الفردية ويحميها ؛ وليس نظاما رأسمالياً لأنه لا يطلق العنان لرأس المال ، بل يحرص على تجريده من وسائل الطغيان ، والسيطرة والنفوذ ، وليس من النظم الاشتراكية المتطرفة إلى اليسار ، لأنه لا يعنى فى إضعاف رأس المال الفردى ، بل يفسح له المجال للقيام بوظيفته فى حدود الصالح العام ، بوصفه عاملا هاما من عوامل الإنتاج ، وليس من النظم الاشتراكية المتطرفة إلى اليمين ، لأنه لا يجنح مثلها إلى تخفيف رقابته على الملكية ورأس المال الفردى .

وهو نظام نسيج وحده ، منقطع النظير بين النظم الاقتصادية السائدة فى الوقت الحاضر ، لا يدانيه نظام منها فى سموه ودقته ومبلغ تحقيقه لخير الأفـــراد والجماعات ، له مقوماته ومثاليته الخاصة به ، وإذا كان لا بد من وصفه بصفة من الصفات المتداول استعمالها على ألسنة المحدثين من علماء الاقتصاد فإننا نصفه بأنه نظام اشتراكى معتدل.

والنظم الاشتراكية فى عمومها كما تقدم بيان ذلك نظم وسطى بين الشيوعية والرأسمالية ، تأخذ ما فيهما من محاسن وتبرأ مما تنطويان عليه من مثالب ، والنظام المعتدل منها هو أوسطها جميعا فالنظام الاقتصادى فى الإسلام هو إذن وسط وخيار من خيار ؟

دكتور على عبد الواحد وافى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مقومات القيادة الناجحة في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

يطلق اصطلاح القيادة في علم « الإدارة العامة » على السلطة التي لها حق إصدار القرارات . والقيادة ضرورة حتمية في جميع المستويات إبتداء من الدولة حتى أصغر قطاع في المجتمع ، وتتمثل القيادة في الأشخاص الذين ارتضتهم الجماعة رؤساء وحكاما ، سواء في المجال السياسي أو الحربي ، أو الاجتماعي ، أو الإداري .

ويرجع نجاح القيادة إلى إخلاص الرؤساء وشجاعتهم ونشاطهم وكفايتهم وفهمهم الصحيح لمسئولياتهم وأهدافهم - ومن ثم كان على الجماعة أن تحسن اختيار قائدها ، فاما إذا أخطأها السداد فولت عليها من لا يصلح للقيادة فإنها سوف تجني - بلا ريب - مغبة سوء اختيارها فتضطرب أمورها وتختفي فيها موازين العدالة .

ولقد آثرنا في هذا البحث أن نستخدم كلمتي القائد والقيادة دون كلمتي الرئيس والرئاسة نظرا لما استقر عليه الباحثون في علم الإدارة من التفريق بينهما في المعنى ، فالرئيس : هو الشخص الذي يفرض إرادته بإصدار الأوامر وإلزام الأفراد بتنفيذها ، فهو يستمد سلطته من مصدر أعلى من الجماعة - كالتشريع - دون أن يعززه بقوة الرأي العام المنبثقة من إجماع الأفراد على احترامه وطاعته . وهو لا يتجاوب مع الجماعة ، ولا يهتم بتنميتها ؛ بل يعمد إلى الاحتفاظ بما لديه من معلومات ، ويفخر بأنه لا يوجد ثمة متخصص سواه ، الأمر الذي يضر بالصالح العام ، لما ينشأ عنه من سوء في العلاقات ، وافتقاد للثقة ، وسريان اليأس والتواكل في نفوس المرءوسين .

أما القائد : فهو الذي يستمد سلطاته ونفوذه من الرضاء العام ، وهو يحوز هذا السلطان طواعية من أعضاء الجماعة ، لا رهبة أو خوفا من العقاب . وهو يتخذ من التعاون في سبيل تحقيق الصالح المشترك أسلوبا للعمل . ويتطلب هذا الأسلوب وعيا ومعرفة وقدرة على تصريف الأمور وانتهاج السياسة المناسبة وتوثيق العلاقة بين الحاكم والمحكوم . فإذا توافرت هذه المقومات لولي أمر الجماعة ؛ فإنه يصبح معلما ومربيا لها ، يرقى بمستواها ، وينقل إليها خبراته ، ويبدي لها المشورة القائمة على السند العلمي والتجارب السابقة ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويتعاون معها على قدم المساواة ، وهو يطرح المشكلة للبحث عن حل لها يحقق للأغراض المنشودة . وبهذه الروح يضع أسلوب العمل، ثم يبدأ فى التنفيذ حتى يصل إلى خاتمة البرنامج .

وفى ضوء هذه المبادىء نستطيع أن نعرف وظيفة القيادة الناجحة بأنها : القيام بتلك الأعمال التى تعين الجماعة على تحقيق أهدافها بمعنى العمل على أن يتعاون أعضاؤها بطريقة تضمن تماسك الجماعة وتحركها فى الاتجاه الملائم . ومن ثم فإن القيادة - على خلاف الرئاسة - تنبع من الجماعة ويشعر الأعضاء بالحاجة إليها ، وهى تؤمن بأهداف الجماعة وتشعر بمشاعرها ، وتستمد منها سلطانها .

على أن التفرقة بين القيادة والرئاسة لا تصل إلى حد وصفهما بأنهما نقيضان ، فالرئيس الكفء يستطيع أن يبلغ مرتبة القيادة وكثيراً ما شاهدنا رؤساء يندمجون فى الإدارات التى يتولون أمورها ويتعاونون مع سائر العاملين بها فينظر الفرد إلى الرئيس أو المدير ، على أنه عضو فى الجماعة ، وقائد لها فى نفس الوقت ، ومن هنا فإن القيادة تتعلق بشخص الرئيس نفسه ، فالرئيس الذى يشغل منصباً صغيراً ، فى مكنته أن يرتفع بمستوى رئاسته إلى درجات القيادة الناجحة على حين أن شاغل المنصب الرئيسى قد يعجز عن الوصول إلى مستوى القيادة لعدم توافر مقومات القيادة فى شخصه .

ولقد انتهى الباحثون من استقراء سير العظماء والأبطال فى تاريخ الإنسانية إلى استنباط عدة معايير وصفات للقائد الناجح يمكن إجمالها فيما يأتى :

* الانتماء إلى الجماعة .
* الإيمان برسالته .
* القدرة على تحديد الهدف .
* الفطنة ، وقوة العارضة، وسعة الأفق
* حسن المظهر ، وقوة التحمل ، والاتزان النفسى .
* القدرة على التأثير ، والإقناع .
* القدرة على الحركة والنظر إلى المستقبل .
* الإلمام بالعمل ، والقدرة على التخطيط والتنظيم .
* القدرة على تحمل المسئوليات ، وحسن الإدارة .
* القدرة على اكتساب ثقة المرءوسين عن طريق مطابقة قوله لفعله .
* تدريب المرءوسين على العمل وفقاً للأصول السليمة .
* الإشراف على المرءوسين ، ومتابعة خطوات العمل .
* النزاهة والعدالة فى المكافأة والعقاب .
* الأبوة والحزم .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

* حسن اختيار المعاونين ، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب .

* إنشاء علاقات إنسانية بين الجماعة على مستوى رفيع .

* الإيمان بالقيادة الجماعية القائمة على الشورى .

* المبادرة إلى علاج ما قد ينشأ من انحرافات قبل استفحالها .

تلك هى أهم الصفات والمناقب التى يمتازبها القائد الفذ فى المجتمع فتسلكه فى عداد الأبطال والرواد فى تاريخ الحضارة الإنسانية .

بيد أن التاريخ لم يسجل منذ نشأة الحضارات فى أقدم العصور أعظم ولا أقدر على البقاء من سيرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وسير القادة المسلمين فى العصور الأولى للإسلام .

وسوف نحاول فى هذا البحث أن نتناول الجوانب القيادية فى سيرة الرسول الكريم ، وذلك فى ضوء النظريات والأفكار الحديثة التى قدمناها حول القائد والقيادة ، مستهلين هذه الدراسة بالحديث عن المقوم الأول من مقومات القيادة فى شخصية الرسول ، ونعنى به « الانتماء إلى الجماعة » .

لقد أجمع العلماء المتخصصون فى بحث القيادة ومقوماتها على أن القائد الذى ينبثق من صميم الجماعة سرعان ما تهوى إليه أفئدة العناصر الصالحة منها بحكم تجاوبها معه نفسيا وفكريا واجتماعيا . إذ تشعر هذه العناصر أن قائدها لم يفرض عليها ، وإنما أختير من صميم مجتمعها ، فهو قد نما وتطور فى ظل الظروف والمراحل التى مرت بها ، وإن كان يمتازعنها بصفات ومناقب خاصة تجعله أهلا لشغل مكان الصدارة منها . ومن هنا يلتقى القائد والجماعة فى بيئة واحدة ، وعلى أرض مشتركة يبدأ منها سيره نحو تحقيق أهدافه فى ظل دفع مستمر ، أشبه بموجات تسرى فى الجماعة من تأثير القائد فيمن حوله وتأثرهم به فى حلقات متصلة بغير انقطاع .

ولقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن فرض رئيس على جماعة لا ينتمى إليها هو أحد الأسباب الجوهرية التى تؤدى إلى هبوط الروح المعنوية ، وسوء العلاقات ، الأمر الذى ينعكس على العمل ، ويخلق مشاكل لا عداد لها ، إذ كثيراً ما نجد أن مثل هذا الرئيس الذى وضع فى غير موضعه ، يعنى بأمور تخرج عن محيط اهتمامات الجماعة ، ولا تتصل بمصالحهم ، أو صالح العمل اتصالا مباشراً فهو يعيش بينهم ولكنه يظل فى عزلة نفسية وفكرية عنهم ، وهو نتيجة لهذا التباين فى الأحاسيس والأفكار ، يجد نفسه تلقائيا مسوقا إلى اتخاذ مركز مصطنع يقيمه على أساس السلطة المفروضة ويحقق به رئاسته

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الشكلية التى تتمثل فى الأثاث والرياش والعرض دون الجوهر ، تميزاً لنفسه عن سائر أعضاء الجماعة ، دون أن يتصدى لعلاج المشكلات التى تعترض العمل والعاملين .

وهو يفعل هذا كله تغطية لقصوره فى الإنتاج بأكوام من الكماليات والرسميات وبذلك تنشأ حواجز مصطنعة بين هذا الرئيس والمجموعة .

كذلك فإنه ينشأ عن عدم انتماء هذا الرئيس إلى الجماعة أن يلجأ إلى أسلوب التفرقة ويعمد إلى المحاباة والتحيز ، فيقرب هذا ويبعد ذاك ويشغلهم بذلك عن تحقيق أهداف العمل .

وإذا أمعنا النظر فى سيرة الرسول عليه الصلاة السلام على ضوء هذه الأفكار ، والنظريات العلمية الحديثة ، أدركنا مدى اكتمال عنصر الانتماء إلى الجماعة فى القائد الأعظم للأمة الإسلامية . يقول الله تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

ذلك أن الشريعة الإسلامية قد نزلت على الأمة العربية ، فاختار الله لها نبيا من أبناء هذه الأمة ، واجتباه من مكة مدينة البيت الحرام التى هبطت فيها الرسالة والتى يعتبر أهلها أكثر العرب تمثيلا للخصائص العربية وشاء الله تعالى أن ينتمى رسوله عليه السلام إلى قبيلة قريش أكبر القبائل العربية ، وإلى بيت عبد المطلب أعرق بيوتها وأطهرها وأنقاها . وقد غابت هذه الحكمة عن نفر من العرب طمس الله على قلوبهم ، وأعمى بصائرهم ، فهم لا يفقهون ، فاستنكروا أن ينزل الله رسالته على بشر مثلهم ، لا يختلف عنهم فى شئون الحياة . وما أبلغ الصورة التى تعبر عن هذا الموقف فى قوله تعالى :

« وقالوا : مالهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها . وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » .

ومن قبل هؤلاء الضالين كان أسلاف لهم فى العصور القديمة أنكروا على أنبيائهم ما أنكره هؤلاء ، غير مدركين أن انتماء الرجل صاحب الرسالة إلى الجماعة التى يتوجه إليها بهذه الرسالة سر من أسرار نجاحه ، وأن هذه الخصيصة من أهم خصائص ومقومات القائد والقيادة . يقول الله تعالى :

« وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » .

وهكذا نبعت الرسالة والرسول من صميم الأمة العربية التى أنزلت عليها شريعة الحق ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فكان انتماء النبي إلى الجماعة التي بعثه الله لقيادتها وبعثها من الضلال إلى الهدى من أسباب نجاح الرسالة العظمى التي اؤتمن عليها صلى الله عليه وسلم . إذ أتاح له هذا الانتماء أن يتحدث بلغة هذه الجماعة ويتفهم شعورها باعتباره واحدا منها اصطفاه الله من بين أفرادها ، وأن يدرك نوازعها النفسية واتجاهاتها الفكرية في مختلف شئون الحياة والمجتمع ، الأمر الذي يشكل عاملا أساسيا في تيسير الدعوة إلى الرسالة والإقناع بها . قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » :

ولقد اكتمل هذا العنصر القيادي - وهو الانتماء إلى الجماعة - في شخصية الرسول بتوافر بعض العوامل الأخرى التي يسهل على الباحث التعرف عليها . ذلك أن القدرة على فهم مشاعر الجماعة وأفكارها - نتيجة لانتماء القائد إليها - تتدعم وتتعمق إذا كان القائد قد مارس في حياته المهنة الرئيسية للجماعة ، واختلط بالسواد الأعظم منها ، فأتيحت له تجارب وخبرات كثيرة تعينه على أن يسبر أغوار القطاعات المختلفة في مجتمعه ، ويدرك مغزى سلوكها وتفكيرها ، وأسرار اتجاهاتها ، فيستطيع قيادتها ، ويسلس له تدبير أمورها .

وقد أراد الله لرسوله الكريم أن يكتسب هذه التجارب والخبرات ليؤهله للاضطلاع برسالته ؛ إذ اشتغل النبي في صباه وشبابه برعي الأغنام والتجارة وهما المهنتان السائدتان في الجزيرة العربية في ذلك الحين . واقتضاه ذلك الأمر الانتقال من مكان إلى آخر ، والاتصال بنماذج مختلفة من الناس في أثناء رحلاته وأسفاره . وفي ذلك يقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد في كتابه عبقرية محمد :

« خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش في البادية والحاضرة .. تربى في الصحراء وألف المدينة ، ورعى القطعان ، واشتغل بالتجارة . . . » .

وكما شارك الرسول الطبقة العاملة الكادحة ، والطبقة المتوسطة في مجتمع قريش في وسائل كسب العيش ؛ فلقد شارك كذلك علية القوم ، وذوي الرأي منهم فيما كانوا يشتغلون به من شئون الحكم ، وتدبير أمور المجتمع في السلم والحرب معا . فشهد الحروب ، كما شهد الأحلاف . ومن الثابت في هذا المقام أن النبي عليه الصلاة والسلام قد حضر في شبابه حلف الفضول الذي عقده بنو هاشم وزهرة وتميم وتعاهدوا فيه باسم الله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه ، وقال الرسول في هذا الحلف : « ما أحب أن يكون لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومن ثم نشأ الرسول فى قلب البيئة العربية وخالطجميع أوساطها، وكان قريبا من سراتها غير بعيد عن فقرائها . فلما نزل عليه الوحى وأمر بالدعوة ، صدع بها فى مجتمع ولد وعاش فى كنفه . مخالطا أهل سائر القبائل والبيوت عالما بظروف هذا المجتمع ، ملما بمعتقداته وتقاليده ، خبيرا بوسائل عمله ، متقنا لغته ، واعيا أسرار تصرفاته ، وقد أتاحت هذه النشأة ، وتلك التجارب لمحمد رسول الله أن يحدد - بوحى من الله - أفضل السبل لهداية العرب إلى الدين الحق . فكان يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويدعو الرجل منهم إلى الإسلام بالأسلوب الذى يتفق مع مستواه . فهو عليه السلام بحكم معرفته بطبائع كل جماعة يستطيع أن يختار الخطة المناسبة لإقناعها ، وهو بحكم تعمقه فى فهم النفس البشرية يستطيع أن ينفذ إلى عقل العربى ، وقلبه ، ويفتح عينيه على نور العقيدة الصحيحة . إن النبى الكريم يدرك مدى اعتزاز العربى بكرامته وأنفته من التعالى عليه وتمسكه الشديد بالعزة والكبرياء ، ومن ثم فإن انتهاج أسلوب اللين فى غير ضعف ، والبعد عن كل ما ينفر المخاطب - هو الطريق القويم للدعوة ، وفى ذلك يقول الله تعالى ، :

« ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك » .

« إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

والعربى ابن البادية ، ومنها أخذ جوهر طباعه وأسلوبه فى الحياة والعمل ، يميل بطبعه إلى البساطة وينفر من التعقيد ، وهو يؤثر الوضوح والصراحة فى العلاقات الاجتماعية ويستنكر الغموض المجافى للفطرة السليمة ولقد بعث الرسول لهداية الناس إلى عقيدة تتفق مع الفطرة ، وكان سبيله فى حث الناس على الدخول فى دين الله متسقا مع تلك الغاية فهو السبيل الواضح المستقيم لاعوج فيه ولا انحـــراف .

فلا غرو أن يكون هذا الأسلوب الذى اتبعه النبى الكريم فى نشر الدعوة ، والذى انبثق من واقع البيئة ، وطبيعة المجتمع من عوامل نجاحه عليه السلام فى الاضطلاع برسالته ، فدخل الناس فى دين الله أفواجاً وتكسرت كل القيود والحواجز التى كانت تقف فى سبيل انتشار الدعوة فى الجزيرة العربية وما حولها ؟

مقدم

حسن فتح الباب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نفحات القرآن

جزاؤنا عند الله قائم على عدله وفضله

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) « إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » .

(ب) « والذين كفروا لهم شراب من حميم ، وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » .

(ا) ١ — من لطائف القرآن فى دعوته أن يساير عقولنا فى هوادة من خطابه ، فيذكر لنا القضية المنشودة ، ثم يسوق ببيانها دليلها ، وحكمتها : على نحو من الترتيب فى الذكر الحكيم .

ولدينا الآن قضية خبرية : فيها تقرير لبدء الخلق ، وإعادته بقدرة الله ، ولحكمة الله .

وهذه القضية تنزل من نفوس المؤمنين منزلة العقيدة ، فلا نقبل جدلا ، ولا نقسح لمشادة .

فجاءت هذه القضية بيانا ، وتدليلا ، وتعليلا — لانتشال الجهلاء من جهالتهم ، وتهذيب الكبرياء عند المستكبرين .

ولعل فيها تبصرة لأولئك المجددين الذين زينت لهم غوايتهم بيننا اليوم أن يقلدوا أولئك الغابرين .

فيها تقرير لأن الله يبدأ الخلق ، وهذا جانب مشهود لنا دائما : فى أنفسنا ، وفى خروج الأجنة من بطون أمهاتها ، وفيما نراه من مشاهد الطبيعة فى توالد النبات والأمطار والأضواء ، والرياح ، وكل شىء ينشأ عن شىء فى آفاق دنيانا .

وفى القضية كذلك تقرير لأن الله يعيد الخلق بعد فنائهم .

والمقصد إعادة الإنس والجن على وجه التأكيد .

لأن الإعادة لغرض المجازاة ولا يجازى إلا من كان ذا تكليف فى الدنيا ... فلا حكمة واضحة فى إعادة الحيوان الأعجم ، وإن كان بعض العلماء يذهب إلى ذلك القول .

وفى القضية تصريح بالتعليل : فى قوله

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تعالى: «ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط».

ولنقف عند هذا التعليل فترة، لندرك مغزاه فى وضوح، ولا نبعد عن نفحات القرآن فى التماس المعنى القريب.

٢ — فهنا بدء، وإعادة، وهنا تعليل بقوله تعالى «ليجزى الذين آمنوا، وعملوا الصالحات بالقسط» فهل التعليل بالجزاء المذكور يكون للبدء، وللإعادة جميعا؟

ذلك يحتاج إلى ملاحظة واعية هى أن الجزاء على الأعمال التى وقعت فى الدنيا منذ بدء الخلق.

أعنى التى كانت منا قبل الفناء والإعادة... والقرآن يذكره عقيب البدء، ثم الإعادة لينتقل بنا سريعا إلى التذكير باليوم الآخر وما فيه من أهوال.

وحقيقة التعليل هنا أنه متعلق بخصوص الإعادة التى سيقعها ثم.

وأما البدء للخلق فتعليله واضح فى قول الله سبحانه «وما خلقت الجن، والإنس إلا ليعبدون».

فالخلق الأول للعبادة... والإعادة أخيرا للجزاء (يوم توفى كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون».

٣ — أنت تلحظ أن الجزاء المذكور فى الآية خاص بالمؤمنين فأين جزاء الكافرين أيضا».

وتلحظ كذلك أن جزاء المؤمنين محدود بالقسط. والقسط هو العدل، والوسط بين طرفين... فلا انحياز إلى تسامح، ولا انقباض عن الوفاء بما هو المستحق فى تقدير الأعمال.

وذلك هو العدل الذى يقف عنده إنصاف المعطى، ولا ينبغى أن يتجاوزه مطمع الطامع فوق عمله... وذلك أيضا هو المفهوم الحق من قول الله: «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئا» «كل امرئ بما كسب رهين».

ولكن أين الفضل بالمزيد الذى ذكر كثيرا فى القرآن «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها... والله يضاعف لمن يشاء!».

المقام بحاجة إلى شىء من الإيضاح الموجز فى كلمات ثلاث.

الأولى — أن فى ذكر المؤمنين قبل سواهم تكريما لهم وتنويها بشأنهم، لما أسلفوا من إيمان صادق وعمل صالح... وفى تبشيرهم بذلك تشجيع لمن يحاول القدوة بهم والسبق معهم فى مجال الخير كله.

وليس فى جزائهم بالقسط هضم، وإنما هو بداية العدل معهم.

على أن القسط المذكور هو العدل الذى ساروا عليه فى دنياهم، وبسببه كان لهم فوق

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

العدل من الله فضل ممنوح . والمعنى ليجزى الله هؤلاء المؤمنين خيرا كثيرا بسبب اهتدائهم فى مسالكهم فلم يحيدوا عما شرع الله .

أما تقدير جزائهم فلا يعلمه غير الله فقال : « وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون » فذلك إطلاق غير محدود .

٤ — الكلمة الثانية أن المؤمنين الذين لم يكونوا فى المقام الأول عملا وإخلاصا لهم كذلك جزاء ملحوظ بما لهم من سابق الإيمان وإن لم تكن أعمالهم فى مستوى الكمال ، « ولكل درجات مما عملوا » والجنة طبقات ، وغرف من فوقها غرف ولا يستوى السابق واللاحق وذلك هو تمام العدل حتى مع التفضل بالمزيد على من ظفروا بالحسنى جميعا .

(ب) ٥ — الكلمة الثالثة — ألا تخصيص للمؤمنين بالذكر فى الجزاء كما يظن ، بل هو تقديم فقط ، وقد جاء ذكر الكافرين عقب ذلك ، فى قوله تعالى : « والذين كفروا لهم شراب من حميم ، وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » فشرابهم الحار الشديد فى جهنم إلخ نوع من الجزاء .

فإن تكن إعادة الخلق أخيرا للحساب ، والجزاء العام ، فللكافرين جانب مشئوم من هذا كله ، جزاء على ما فرط منهم ، جميعا طوال العصور . فقد كانت رسالات الله هادية ، وزاجرة ... حتى لم تعد للناس حجة يتعللون بها فى حياتهم ، ولا معذرة فى جفوتهم لدينهم .

ولكن المعرضين لم يتعقلوا أن يكون لله جانب شديد يخشونه ، ولا جانب رحيم يلوذون به . فكانوا قساة على أنفسهم وإن عاشوا فى طواعيتها ، واستسلموا لهواها حتى تردوا فى الهلاك .

وكان الحديث عنهم بعد ذكر المؤمنين لأن الكفر نزل بهم إلى المنزلة الدون .

ثم كان الحديث عنهم فى غير تلطف بهم لأنهم أمعنوا فى الجفاء لله ، ولرسله قديما وحديثا .

والعدل مع من يسىء ويستمر فى الإساءة ، ويتصلف : أن يعامل بالمثل ، أو أشد .

وهذا جانب من الحكمة فى التنديد عليهم ، والتشاؤم من ذكرهم ، وتأخيرهم فى الذكر ، حتى كأن شأنهم فى اليوم الآخر مبتور عن شأن سواهم ، وكأنهم لم يذكروا إلا لتجديد السخط عليهم ، والحط من شأنهم ، وتوجيههم إلى المصير السيىء .

وتكون المقابلة بين جزاء الفريقين هى مقابلة الشىء بنقيضه ، ففريق فى الجنة ... وفريق فى السعير » .

٦ — ومع هذا كله فلم يكن عدل الله .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بحفنا بهم فى دنيـاهم ، ولن يتخلى عنهم فى أخراهم : لأن عـــدله سبحانه ـ صفة ذاتية له ، ولا يصدر عنه إلا ما يليق بكماله المطلق ... ولا يغض من عدله هذا كراهيته لمن يعصيه أو يكفر به ... بل هو يدعونا إلى التحمل بالعدل فى دنيانا حتى مع أعدائنا فى الدين .

ومظهر عدله تعالى مع الكافرين فى دنياهم أنه بين لهم الرشد من الغى ، وطاولهم بحلمه مع تماديهم فى غيهم ، ووعدهم بالغفران إن أنابوا إليه ، وبسط لهم فى نعمائه ، وهم يحاربونه بها ، وقدم كثيرا من النذر ليدركوا فضل الله عليهم بإمهالهم ... وقرع أسماعهم بالآيات البينات التى تجذبهم إلى ناحية الإيمان ، فقال ـ مثلا ـ « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا » ، « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم ... إلخ » .

وذلك سياق يقسع لكثير من العقول ، ولكن ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون من المآثم التى اكتنفوها بحكم التقليد والتعود .

ومن مظاهر عدله فى أخراهم أنه لا يأخذهم بغتة فى الآخرة ، ولا يقحمهم فى ناره إلا بعد محاسبته لهم ، ومكاشفته لما كانوا فى غفلة عنه حتى تذل جباههم ، وتنحنى رءوسهم ، وتقوم الحجة عليهم ، ويكونوا فى عزى من ربهم .

وحتى يبرأ بعضهم من بعض ، ويبرأ منهم جميعا الشيطان الذى أضلهم ، ويتمنوا أن يرجعهم ربهم إلى الدنيا ليعملوا صالحا غير الذى كانوا يعملونه .

والله سبحانه ، يزيدهم بيانا لشأنهم ، فيواجههم بما يعلمه عنهم : من أنهم « لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » .

ثم يكون عدل الله فى تلك المواقف كلها أن يبين لهم قسطاسه فى حسابهم ليزدادوا ندما على ما أسلفوا ، وليقتنعوا حقا بأن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن كانوا لأنفسهم ظالمين .

حتى لنراهم يتنادون بأن ما وعدهم الله من عذابه حق ، وذلك مبلغ ما يكون من العدل الذى يقر بحقيته الظالم والمدين .

على أن عدل الله يقوم بينهم وهم فى غمرات العذاب والحريق .

فالكفر سوى بينهم فى المصير ، ولكن عدل الله فرق بينهم فى المستقر .

فلم يجعلهم سواء فى طبقة واحدة يصلونها جميعا ـ بل جعل جهنم متفاوتة الدركات ، وجعل لها سبعة أبواب ، ولكل باب من الكافرين جزء مقسوم يدخلون منه إلى مستقرهم فيها حسب تفاوتهم فى الكفر والأعمال .

وأنت ترى فى القرآن الكريم بيانا لهذا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كله ، وتدرك من هذا التقسيم هداك الله في المعذبين ، فلم يكن أبو طالب مع كفره ، قرين أبي لهب ، ولا قرين أبي جهل .

فأبو طالب كان موالياً لرسول الله وإن لم يعلن إسلامه .

وأبو لهب وزوجته ، وأبو جهل وأمثالهم كانوا ألد خصومه ، ومن أشد الناس ولعاً بإيذائه ، كما كان المنافقون معه .

وعدل الله يأبى أن يجعل هذا في مستوى ذاك ... وإن كان العذاب شؤما على الجميع .

وأظن أنه لا يجول بخاطر إنسان أن الله كان يحب لعباده ذلك الشقاء ، أو كانت له غاية مرموقة فيه .

فإنه رحيم كريم ، ولطيف وحليم ، وقد حذرنا عصيانه ، وبسط لنا رضوانه ... وقال في كتابه : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » . وقال : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم ، وأشد تثبيتا وإذن لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ، ولهديناهم صراطا مستقيما » .

غير أننا تجاوزنا الحدود المرسومة ، وانتهكنا حرمات يغار الله عليها ، في دينه ، فكان من حق الله في سلطانه أن يثأر ممن حام حول حماه حتى سقط فيه .

وهذه مرحلة من القول في قضية من قضايا القرآن في سورة يونس عليه السلام ، ومنها تدرك تفصيلا موجزاً لما في الآية الأولى من عجب الكفار ، إذ جاءهم رسول بوحي من الله ينذر الناس ويبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟

عبد اللطيف السبكي

خشية الله

« ... اعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين : في طاعته واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة . وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء . منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، وبمحبة الناس . فلا تزهد في التحبب ، فإن النبيين قد سألوا محبتهم . وإن الله إذا أحب عبدا حببه . وإذا أبغض عبدا بغضه . فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك » .

(عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حول شعب الإيمان

للأستاذ محمد الغزالي

في عصرنا الحاضر يظن كثير من الناس : أن الدين علاقة خاصة بين الإنسان وربه ، أو علاقة ما بين البشر وقوى الغيب التي لا تدركها الحواس .

وتتمثل هذه العلاقة غالباً في مراسم العبادة التي يقوم بها الفرد ، ويصطبغ بها ضميره .

لكن هذا الظن إن صح على إطلاقه في بعض الديانات . فهو غير صحيح بالنسبة إلى الإسلام .

فإن ديننا مقسم الدائرة ، متشعب التعاليم ، وهو يتناول العلاقة : بين الإنسان والله ، وبين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان والحياة كلها .

أو تستطيع أن تقول : إن العلاقة بين الإنسان وربه كما يشرحها الإسلام تتعدى الحياة الداخلية للنفس الإنسانية لتؤثر في صلة المرء بغيره من الأشخاص والأشياء ، فهو يتعامل مع هذه وتلك على هدى من ارتباطه بالله ، وولائه له ، واستمساكه بوصاياه ، وإخضاعه حركاته وسكناته لأمره ونهيه .

والوحي الإلهي الذي يقوم عليه هذا الدين تعرض لشتى الشئون التي تلقى الإنسان من المهد إلى اللحد ، وأوضح السلوك المناسب بإزائها .

وبيانا لاتساع الدائرة التي يتحرك الإيمان داخل أقطارها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وستون شعبة ، أو بضع وسبعون شعبة : أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

وقد قرأت رسالة أحصت هذه الشعب واحدة واحدة ، وبلغت بي تسعا وسبعين شعبة ، جمعت معاقد الشريعة ، وأصول الأخلاق ، وأركان الدين ، وما ينضم إليها من آداب ونوافل ، يبلغ بها الإسلام تمامه . .

والذي أرجحه أن العدد غير مقصود ، وأن الشارع الحكيم إنما يريد إيقاظنا إلى أن طبيعة الإيمان : الهيمنة على النفس والمجتمع والدولة ، أي توجيه الحياة الخاصة ، والعامة على سواء ، وتسييرها باسم الله وفق مراده .

بحيث يكون أمر الله ملحوظا في البيت والشارع ، بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والناس أجمعين ، فلا تفلت وجهه للسلم من قصد الله وإعلاء كلمته ، ولا يفلت ميدان للحياة من الانطباع بصبغة الدين والاتساق مع مبادئه وأهدافه ...

ولا يهمنا أن تكون شعب الإيمان عدداً لا مفهوم له ، أو عدداً له مفهومه ، إنما الذى أوده أن نحسن ترتيب التعاليم الإسلامية ترتيباً تنازلياً ، يشبه ترتيب الجهاز الوظائفى فى الدولة ، وتسلسل القيادات التى تلقى الأوامر وتتلقاها ، وتنهض بالواجبات والأعباء التى توكل إليها ...

إن الإيمان يشبه الكائن الحى ، وهذا الكائن الحى تتماسك الحياة فيه مقرونة بأجهزة معينة ، فإذا أصيب المرء إصابة قاتلة فى دماغه أو رئتيه أو أمعائه أو عموده الفقرى هلك ...

وقد يصاب المرء فى أطرافه أو حواسه ، فلا يفقد أصل الحياة ، وإنما يعيش مشوه البدن أو ناقص الأعضاء .

كذلك الإيمان فى كماله ونقصانه وفى وجوده وفقدانه .

الإيمان الصحيح لابد أن يستوعب من العناصر ما يسيطر به سيطرة تامة .

أولا : على النفس فى بواعثها وغاياتها .

ثانياً : على المجتمع فى معاملاته ونظمه .

ثالثاً : على الحياة فى نشاطها العمرانى والاقتصادى ؛ فيوجه لخدمة الدين ، وتمكين أصوله وفروعه وحياطة جوهره ومظهره ...

وأركان الإسلام تنتظم من الحقائق ما يملأ هذه الأرجاء جميعا ...

فالصلاة والصيام - مثلا - ركنان فى الإيمان الشخصى ، والفرد مسئول برأسه عن القيام بهما . وهما يوفران للنفس الإنسانية جوا رائعا من الصفاء والإخلاص والعفة والاستعلاء . وإلى جانب هذين الركنين لابد من امتداد الإيمان إلى المجتمع ، ليصوغه فى قوالبه ، ويشكل البيئة العامة وفق مطالبه .

وقد تكفل بهذا على سبيل المثال ركنان آخران : هما الجهاد فى سبيل الله ، والحكم بما أنزل الله .

وإنما وصفنا هذين الركنين بأنهما من الدعائم الاجتماعية للإسلام ، لأن الفرد - وإن كان حامل التكليف بهما - إلا أنهما من وظائف المجتمع الأولى ؛ فهو الذى ينظم عدة الجهاد ، ويرسم ميادينه ، وهو أيضا الذى ينظم القضاء ، ويختار رجاله ، وينفذ أحكامه ...

وإذا كان الإسلام يعمر الفؤاد باليقين الباعث على العمل ، والخلق العاصم من السقوط وإذا كان يلف الحياة العامة بروابطه ، ويمسك

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

زمامها بشرائعه ، فهو مع هذين يفرض سلطانه على مصادر الثروة فى البر والبحر ، والخصب والجدب ، ويجعل من الطاقة المادية الأمة وقودا محركا لرسالتها الكبرى ، ومثلها العليا .

وليس فى الدنيا نظام يستغنى عن هذه المصادر ، أو يفرط فى استغلالها ، إلا إذا كان يريد التلاشى والانتحار .

وشعب الإيمان يمكن توزيعها على الأقسام التى بيناها ، سواء كانت محصورة ، أو غير محصورة .

ونحب أن نذكر طائفة من شعب الإيمان ، كما أحصاها الحافظ البيهقى ، شارحين لها على ضوء ما ذكرنا .

للحق حرمته التى تجعل المرء يغالى به ويدفع عنه ويستمسك به إلى آخر رمق .

والتعصب للحق أثر الإيمان الصحيح به .

وهذه الشعبة من شعب الإيمان ، يضعها البيهقى تحت عنوان « شح المرء بدينه ، حتى يكون القذف فى النار أحب إليه من الكفر » .

ثم يسوق فى الاستشهاد لها حديث أنس ابن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان :

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله .

وأن يلقى فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه » .

وكذلك ما رواه مسلم أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فأعطاه غنما بين جبلين فأتى قومه فقال : أسلموا ، فوالله إن محمداً ليعطى عطاء رجل لا يخاف الفاقة » ! !

لكن هل تألف القلوب بالعطاء سر دخولها فى الإيمان ؟ لا ...

ويجيب على ذلك الإمام المحدث ... « وإن كان الرجل يجئ إلى النبى ما يريد إلا الدنيا ، فما يمسى حتى يكون دينه أحب إليه ، وأعز من الدنيا بما فيها » ، ومن التعصب للحق أن يصادق المرء من يصادق ، ويخاصم من يخاصم ، للمبدأ الذى يعتنقه ، لا رغبة أو رهبة .

إنما هى معرفة الناس لله ، أو كرههم لله .

والشهادة لهم أو عليهم إحقاقا للحق ، وإبطالا للباطل ، لا لغرض آخر ...

وهذه الشعبة من شعب الإيمان تتصل بأدب النفس ، وتسلك مع العبادات الفردية ، وإن كان أثرها الاجتماعى بيناً حاسماً ...

وقد عد البيهقى الكسب الطيب شعبة من شعب الإيمان ، وذكر فى ذلك الحديث الصحيح :

« يا أيها الناس إن الله تعالى طيب ، لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال :

« يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون عليم » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقال : « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » .

وقال « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، ومشربه حرام ، وغذي بالحرام ؛ فأنى يستجاب له ؟

وهذا وصف لبعض الكادحين الذين يقبلون على الدنيا بنهمة الوحش الجائع على فريسته ، يطول عنـــاؤهم وراء عرضها ، ولكن لا يدركون حظا من رحمة الله لشرههم ، وأكلهم السحت .

وأغلب الناس فى طلب القوت يرون أن الغاية تبرر الوسيلة ، ومن ثم ، فهم يوفرونه بكل حيلة ، غير مبالين بحل أو حرمة .

وما يفعله الصغار لإدرار الرزق من أى منبع ، يفعل مثله الكبار فى طلب المناصب التى توسع الجاه والثراء .

وأهل الإيمان برآء من هذا كله .

وقد روى البيهقى بضع طرائف لترسيخ العفاف فى النفس ، وكسب الدنيا من الحلال وحده ، فعن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب شرب لبناً فأعجبه ، فقال للذى سقاه : من أين لك هذا اللبن ؟

فأخبره أنه ورد على ماء ـ قد سماه ـ فإذا نعم من نعم الصدقة ، وهم يسقون فحلبوه لى من ألبانها ، فجعلته فى سقائى ، وهو هذا ... فأدخل عمر يده فى فمه فاستقاه ...

وعن بشر بن الحارث ، قال يوسف بن أسباط : إذا تعبد الشاب ، يقول إبليس : انظروا من أين مطعمه ؟

فإن كان مطعمه مطعم سوء قال : دعوه لا تشتغلوا به !

دعوه يجتهد ويتعب فقد كفاكم نفسه .

وسئل سفيان الثورى : عن فضل الصف الأول ، فقال : انظر كسرتك التى تأكل من أين تأكلها وصل فى الصف الأخير .

وهذا من سفيان إرشاد للفرض قبل النفل .

فإن البعض قد يظن فضل المبادرة إلى الصف الأول مكفراً التهجم على المكاسب من أى طريق وهذا خطأ .

والغريب أن من المصلين من يصطاد رزقه ، كيفما اتفق، ثم يحرص على القرب من المحراب، كأن هذا يغطى ذاك .

ويروى عن حذيفة المرعشى أنه نظر إلى الناس يتبادرون إلى الصف الأول ، فقال : ينبغى أن يتبادروا إلى أكل خبز الحلال !!

وإذا كان المباح مرفوضا بالوسائل المريبة ، فكيف بالمحرم ؟ !

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عن الحكم بن هشام قال لابن له : يابنى إياك والنبيذ ، فإنه فيّ فى شدقك ، وسلح على عقلك ، وحد فى ظهرك ، وتكون ضحكة الصبيان ، وأسيراً للديان .

وأنشد الحسين بن عبد الرحمن

أرى كل قوم يحفظون حريمهم
وليس لأصحاب النبيذ حريم
إذا جئتهم ، حيوك ألفا ، ورحبوا
وإن غبت عنهم ساعة فذميم
أخوهم إذا ما دارت الكأس بينهم
وكلهم رث الوصال سئوم
فهذا ثنائى ؛ لم أقل بجهالة
ولكن بحال الفاسقين علیم

وصدق الشاعر ، فليس السكارى أعراض ، ولعل انحلال عرا الشرف فى الغرب والشرق يعود إلى شيوع الخمر ، وإغفاء الفكر ، واستيقاظ الشهوة ، نسأل الله العافية ...

وعلاقة الإيمان بالدنيا ليست فقط ضمان كسبها من وجه شريف ؛ فإن التلطف فى استنباط الخير من خزائن الأرض ، كسب هائل لدين الله ، وأبواب ذلك فوق الحصر ...

إن التمكين فى الأرض ، واستثارة خيراتها ، وإجادة أنواع الحرف ، والفقه فى قوى الكون وأسرار الوجود خصائص هامة استحق بها بنو آدم الاستخلاف فى الأرض .

وهم يتفاوتون قوة وضعفا ، وغنى وفقراً على قدر حظوظهم من هذه الخصائص ، وإفادتهم منها ...

والسباق بين المبادئ الحقة والباطلة على تسلم أزمة الحياة ، يعتمد - فيما يعتمد - على التفوق فى هذا الجانب .

من أجل ذلك نحن نعد من أبواب الجهاد - إجادة فنون الحياة ، وحسن استخدامها لنصرة الحق ...

وكل سبق فى هذا المضمار ، فهو تحصيل لشعبة من شعب الإيمان ، ما دام وجه الله مراداً فيه ..

ويجب أن ييأس المؤمنون من إحراز فوز لعقائدهم ، إذا كان سهمهم فى هذا المجال ضئيلا ...

إن الإيمان الحق يسيطر على المجتمع ، وعلى البيئة ، ويسوقها نحو غايته ، كما يجرف التيار فى مده كل شئ إلى وجهته ...

ومن الشعب التى تسمو بها الإنسانية ، وينضر بها وجه الإسلام ، حسن الخلق .

وللبيهقى كلام فى هذا الموضوع ، يجمل أن نذكره بعد ذكر النصوص التى تتصل بالمقام .

قال : حسن الخلق ، ويدخل فيه كظم الغيظ ، ولين الجانب ، والتواضع ، لقوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولحديث عبد الله بن عمرو فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشا ، ولا متفحشا . وقال : « إن من خياركم أحسنكم أخلاقا » ، وفى رواية : « إن من أحبكم إلىّ أحسنكم أخلاقا » .

ولحديث عائشة رضى الله عنها فى الصحيحين أيضا أنها قالت : « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما ، كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه ، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها » .

وبه أنبأنا أبو بكر البيهقى قال : ومعنى حسن الخلق استقامة النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال .

وقد يكون ذلك فى ذات الله تعالى ، وقد يكون فيما بين الناس .

وهو فى ذات الله عز وجل ، أن يكون العبد منشرح الصدر بأوامر الله تعالى ، ونواهيه يفعل ما فرض عليه طيب النفس به ، وينتهى عما حرم عليه ، راضيا غير متضجر .

ويرغب فى نوافل الخير ، ويترك كثيراً من المباح لوجهه تعالى وتقدس . إذا رأى أن تركه أقرب إلى العبودية من فعله ، مستبشرا لذلك غير ضجر منه ، ولا متعسر به .

وهو فى المعاملات بين الناس أن يكون سمحا بحقوقه لا يطالب غيره بها ، ولو فيما يجب لغيره عليه منها . فإن مرض ولم يعد ، أو قدم من سفر فلم يزر ، أو سلم فلم يرد عليه ، أو ضاف فلم يكرم ، أو شفع فلم يجب ، أو أحسن فلم يشكر ، أو دخل على قوم فلم يمكن ، أو تكلم فلم ينصت له ، أو استأذن على صديق فلم يأذن ، أو خطب فلم يزوج ، أو استمهل الدين فلم يمهل ، أو استنقص منه فلم ينقص ، وما أشبه ذلك ، ولم يغضب ، ولم يتفكر من حاله ، ولم يستشعر فى نفسه أنه قد جفى ، وأوحش ، وأنه لا يقابل كل ذلك إذا وجد السبيل إليه بمثله بل إنه لا يعتد بشىء من ذلك ، ويقابل كلا منه بما هو أحسن وأفضل . وأقرب إلى البر والتقوى وأشبه بما يحمد ويرضى ، ثم يكون فى إيفاء ما يكون عليه كهو فى حفظ ما يكون له ، فإذا مرض أخوه المسلم عاده وإن جاء فى شفاعة شفعه ، وإن استمهله فى قضاء دين أمهله ، وإن احتاج منه إلى معونته أعانه ، وإن استسمحه فى بيع سمح له ، ولا ينظر إلى أن الذى يعامله كيف كانت معاملته إياه فيما خلا ، إنما يتخذ الأحسن إماما لنفسه ، فينحو نحوه ولا يخالفه .

تلك نظرة عجلى إلى شعب الإيمان ، نرجو أن نكون قد ألممنا بها إلى الإيمان كله .

محمد الغزالى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أثر اليتيمة في أدب الأندلس

للأستاذ محمد رجب البيومي

— ١ —

أكثر ما عثر عليه في التراث الأندلسي - من كتب التراجم والأخبار ، يرجع تأليفه إلى عهد ملوك الطوائف وما يليه ، وأقله يتقدم هذا العهد لأئمة من سابق الكتاب ، وأنت حين تقرأ هذا الكثير - مما صدر في العهد الأخير - تجده يكاد أن يكون متشابها ، فليست هناك فروق بعيدة بين كاتب وكاتب ، وكأنهم يصدرون جميعا عن مورد غير مختلف ، ولا ننكر أن لكل كاتب ما ينفرد به من السمات التي لا تخفى على البصير المتيقظ ، ولكن الطابع العام مع ذلك واحد ، فجل هذه الكتب تميل إلى المبالغة والإسراف ، وتتخذ من التراجم الإنسانية معرضا للبديع بسجعه وجناسه ، حتى لتكاد الحقائق الذاتية تختفي في طيات هذه الزركشة الشائعة ، وهي ظاهرة هامة تحتاج إلى تعليل وتحليل . لقد وفدت إلى الأندلس من الشرق كتب الأعلام من أئمة التأليف ، وتداول الأندلسيون آثار ابن المقفع ، والجاحظ ، وأبي الفرج الأصفهاني ، وأبي حيان التوحيدي ، وأضرابهم من ذوي الأسلوب الحي والتفكير الخصب ! ولكن أثر هؤلاء الأئمة لم يكد يتضح فيما نشر من الكتب في عهد الطوائف وما يليه ، واتضح أثر كتاب ذائع ، تقبله الأندلسيون بارتياح ذلك الكتاب الذائع هو (يتيمة الدهر) بأجزائه الأربعة ، لأبي منصور الثعالبي رحمه الله .

وأنت حين تبحث عن سر ارتياح القوم لصاحب اليتيمة ، وولوعهم باقتنائه ، تجد لديك ما تقول ! فالنثر العربي - لعهد الثعالبي - كان قد تطور من الطبع إلى الصنعة ، ومال به الخوارزمي والصابي ، وابن العميد ، والصاحب والهمذاني إلى ضروب من التكلف . تعمد إلى الحلية الظاهرة والزينة البارزة ، وتغفل الاستشفاف ، والتبصر ، وتخطيء الإصابة اليقظة للتعليل والتحليل ! وجاء الثعالبي فتأثر بسابقيه الأقربين ، وكان له من ظروف نشأته واتجاهه ما حبب هذا اللون إلى قلبه ، إذ أن بلاغة اللفظ وحدها في أضيق حدودها المتعارفة كانت هي التي تأخذ بمجامع تفكيره ونظرة إلى منحاه في التأليف . توضح هذا الاهتمام ؛ فكتاب فقه اللغة ، وكتاب الكنايات ، وكتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، كلها تشهد إلى اهتمامه الجزئي

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بالتراكيب اللفظية ، وقد يكون هذا بدعة العصر أجمعه . إلا أن الثعالبي حين نقل هذا الولوع الفني بالصنعة اللفظية من ميدان الرسائل والمقامات إلى ميدان التأليف العلمي قد فتح الطريق إلى اتجاه جديد في التأليف ، ومهما قيل عن تسويغ هذا الاتجاه ، فليس هو الطريق المفيد .

انتقـــل كتاب اليتيمة إلى الأندلس ؛ فأحدث دويه ، وأرخ الكتاب يوم صدوره واحتفلوا باستقباله احتفالا لم يتيسر لأكثر الوافد من الآثار ، وتعليل ذلك الاهتمام قريب غير بعيد ؛ فمناظر الأندلس الطبيعية ، توحي بالزينة ، وحضارة الأندلس قد أوجبت تنميق الأثاث ، وتجميل الرياش ، وتحلية القصور والأبهاء ، ثم انتقلت إلى اختراع الموشحات في دنيا النظم ، ومن الطبيعي أن تنتقل إلى استحسان البديع في دنيا النثر ، أضف إلى ذلك أن أكثر القائمين بكتابة الرسائل لدى ملوك الأندلس أدباء ، وفقهاء في وقت واحد ، وولوع هذا النوع من الكاتبين بالبهارج اللفظية أشد وأكثر ، ولسنا ننكر أن منهم أدباء خلصا ، ترنح أعطافهم روائع الأدب الأصيل ، ولكن ماذا يصنع القليل أمام الكثير .

جاء كتاب الثعالبي فأحدث دويه ، وأخذ أصحاب التراجم يحتذونه مباهين ! وإذا قلت : أصحاب التراجم ، فإني أعني التراجم السياسية والأدبية معاً ، لأن أكثر حاكمي الأندلس ، أدباء وشعراء ، بل كانت الوزارة في أكثر سبلها لا يلتمس أصحابها في غير الأدباء والشعراء ! لذلك كانت كتب التراجم من سياسية ، وأدبية متشابهة متآخية ، وقد وجد في المشارقة من وصلوا إلى الوزارة عن طريق الأدب ، ولكنهم بالقياس إلى أولئك نفر قليل .

إن ولوع الأندلسيين بالزينة والزخرف كسبب نفسي ترد إليه هذه الظاهرة ، هو الذي أتاح لكتاب اليتيمة أن يصبح مثالا يحتذى ، وإلا فإن شيخ مؤرخي الأندلس ، وصيد كتابها (ابن حيان) كان جديراً أن يكون رائد المدرسة التاريخية في إقليمه ، لو وجد من تلاميذه وحفدته من يتذوقون نهجه ، أو يحاولون السير على منواله ! ولك أن تعجب حين ترى ابن بسام في الذخيرة ينقل آراء الرجل وأقواله مسهبا مطبلا ، فإذا عاد إلى نفسه تداركته عدوى اليتيمة ، ونسي الأفق المشرق الذي كان ينقل من أضوائه !! أيكون ابن بسام أعجز من أن يحاكي ابن حيان ! هو كذلك بلا شك ، ولو أنه حاكاه في زمنه المتأخر ما وقع حديثه أطيب موقع لدى من يرهفون أسماعهم لصلصلة الحلى ، ورنين الأسجاع !

كان ابن حيان (٣٧٧ — ٤٦٩) جزل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

العبارة ، شديد العارضة ، قوى الآصرة . تلمس فى أسلوبه قوة وتدفقا ، وتراه نسجا وحده فى براعة التلوين ، وقوة التصوير ، فإذا نظرت إلى أحكامه شاقك أن تجد بعداً فى الغور ، وبراعـــة فى النفاذ ، ودقة فى الملاحظة ، وهو جاحظى التركيب فى تدفقه وانصبابه ، وكثيراً ما ينجو من استطراد الجاحظ إلى الموضوعية المركزة المحددة ، وكاتب مثل من هـذا الطراز لا يرحب به العامة من القارئين ترحيبهم بالكاتب السهل المتناول القريب الأخذ ! ولعل ذلك مما أضاع مؤلفاته على كثرة أجزائها وجودة منحاها ، إذ لو رزقت سواداً كبيراً من القارئين لتزايد نسخها ، ووصل إلينا منها شيء ذو بال ... ؛ لأننا لم نر الرجل حقا إلا فيما نقله عنه صاحب الذخيرة ـ وما أكثر ما نقل ـ وإلا فى ثلاثة أجزاء من كتاب « المقتبس » فقط ، أما بقية الأجزاء العشرة ، وأما كتاب « المتين » ذو المجلدات الستين ! ! وأما كتاب « فقهاء قرطبة » ، وأما كتاب « المآثر العامرية » ، فوا أسفا !

يقول المؤرخ الهولندى (دوزى) عنه : « إنه يسوق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ، ويناقشها عن علم وفهم وذكاء كما سيفعل من بعده نقادون ؛ كابن سعيد ، وابن خلدون ، ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب ناصع ، لا يهبط إلى الركاكة ولا يقع كذلك فى التفصح والإسراف فى قعاقع الألفاظ ، ورغم التزامه هذه السهولة لا يهمل جانب الجمال فى أسلوبه ، ويبعث فى كلامه دائما حماسة وغنى وطابعا غالبا من الجدة ، ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد بين مؤرخى العرب إلا القليلين الذين نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من نقدمه عليه [1] » .

أجل لن نجـــد من مؤرخى العرب من نقارنه به إلا كاتبا كابن خلدون ؛ أما الذين أكثروا من التراجم الأندلسية من بعده ، فقعدت مواهبهم المتواضعة دون اللحاق به ! وفيهم من جرؤ على انتقاده ، فابن بسام يقول عنه ـ الذخيرة ١/٢ ص ٨٥ ـ :

« ومع ذلك فقد كان سهما لا ينبى رميه ، وبحراً لا ينكش آذيه ، ولو سكب الماء ما نقع ، أو تعرض لابن ذكاء ما سطع ، يتناول الأحساب قد رسخت فى التخوم وأنافت على النجوم ، فيضع مناوها ، ويطمس أنوارها ، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب الموعد ، وأمكن من عذر الطبيب عند العود ، فرب شامخ بأنفه ، ثان من عطفه ، قد مر من كتابه بفصل جرده لوضع حسبه ، وخلده

(١) الأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٣٩٣ نقلا عن تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة مؤنس ٢١١ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أحدوثة باقية فى عقبه ، فيرده ورود الظمآن الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق » .

فصاحب الذخيرة يأسى على لذعات ابن حيان ونقداته ، فهو يريد منه أن يذكر المحاسن ، ويغضى عن المساوئ ! وقد نسى ابن بسام شيئا هاما ، هو أن من كان فى ألمعية ابن حيان وقوة بصيرته ، وشمول نظرته ، يرى كثيراً من الهنات فيمن يتناول ، ولابد أن يقول رأيه مستنداً إلى تجربته الواسعة ، وخبرته الأصيلة بالنفوس ! قد يكون ابن حيان أكثر من النقد ، وأسرف ، فالصفحات التى اقتبسها ابن بسام تحت عنوان (المختار من قوله) تضرب فى النقد إلى مدى متطاول كاد أن يكون سبابا ! حتى ليفهم القارئ أن كتابته جميعها من هذا الطراز ، ولكن متابعة ما طبع من الذخيرة ، وما تدوول من أجزاء المقتبس تفهمنا أن ابن حيان ناقد منصف ، يسجل الشر والخير معاً ! وهو ما لا يرتضيه ابن بسام ، وقد تعرض الدكتور أحمد أمين إلى الفصل فى هذه القضية فقال فى ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٨ :

« ونحن إلى مذهب ابن حيان أقرب ، فالمؤرخ عليه أن يتحرى الصدق فى المدح والذم والنافع والضار أما اقتصاره على المدح دون الذم (كما يريد ابن بسام) . فتقصير فى رواية الحق ، وقول لنصف الحق ، وليس الرجل المشهور فى التاريخ ملكا لنفسه ، بل أصبح ملكا لشعبه ، يشرحه المؤرخ الحصيف ، كما يشرح الطبيب المريض! فنحن مع ابن حيان لا ابن بسام ، وكثيراً ماضقت ذرعا بالمؤرخين الذين لا يذكرون إلا المحامد ويغضون الطرف عن المفاسد بل قد يخلقون المدائح خلقا وإن لم يصح نسبتها إليهم حقاً .

ولو تعمقنا بواعث التأليف لدى ابن حيان وابن بسام ، لوجدنا كلا الرجلين منطقياً مع نفسه ، فابن حيان ألف كتابه ليصدر أحكامه كما يراها عقله البصير ، ويقول بعض الكاتبين عنه : « إنه لم يقصد إذاعة كتبه بين الناس ، بل جعلها مذكرات خاصة لورثته ، كى يستفيدوا منها ، وينتفعوا بعظاتها » ، وأنا أستبعد هذا ولا أقبله ، لأن المؤلف الذى يكتب أكثر من مائة مجلد فى التاريخ لا يقر بينه وبين نفسه أن تظل هذه الآثار الحافلة ملكا لعشرة من القراء أو عشرين !! ولكنه يقوم بمجهوده الضخم ، ليسمع الناس ما يريد وإذا كان ابن حيان قد اعترف بهذا الضن حين قال عن بعض كتبه . الذخيرة ١/٢ ص ٨٨ - : « وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسى وخبأه لولدى ، والضن بفوائده الجمة على من تنكب إحمادى به إلى ذمى ومنقصتى ، طويت على ذلك كشحاً ، وأمضيته عزما ، إلى أن رأيت زفافه إلى خطبة سنية أتقى على بعد المدار ، أكرم خاطب ، وأسنى ذى همة : الأمير المؤمل يحيى بن ذى النون » ، فليس لنا أن نحمل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

هذا الاعتراف قضية مسلمة ، لشيء واحد ! لأنه يخالف طبائع الأشياء ! هذا شأن ابن حيان فى تأليفه . أما ابن بسام ، فقد ألف الذخيرة لينصف أهل الأندلس ويقف بهم مع المشارقة فى مستوى واحد ومؤلف هذه وجهته لا يتسنى له أن يسطر ما يعرف من المآخذ ! وإلا ما استطاع أن يبلغ بمؤلفه ما يريد ! ! .

لقد أطلنا القول شيئا ما عن ابن حيان ! وهو كاتب يستحق الالتفات دون نزاع ، وقد أنصفه الكاتب المفضال الأستاذ على أدهم حين ذكر فى معرض تبرئته من التحامل أنه وإن كان ينتصر دائما للخلافة الأموية ، فهو أوسع أفقا وأكثر أمانة ، وأشد احتراما للحق من أن يكيل لهم المدح جزافا ويخلع عليهم أبراد الثناء بلا حساب ، وقد عدد فى الجزء الثالث من كتابه (المقتبس) مناقب الأمير عبد الله ، وأبدع فى وصفها ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، وأضاف إلى ذلك ذكر عيوبه ونقائصه ، وأحصى عليه أخطاءه وجرائمه ! ... ولا أعرف مؤرخا من مؤرخى المشارقة يقوم لابن حيان فى قوة التصوير ، وبراعة التلوين ، مع الإصالة والطرافة . وهو فى قوة تصويره ، وصرامته وصراحته ، واستمساكه بالموازين الأخلاقية يذكرنى بالمؤرخ الرومانى العظيم تاسينوس ،

مجلة الثقافة عدد ٦١٤ .

إن هذا المؤرخ الفذ الذى يقول عنه صادقا الأستاذ على أدهم أنه لا يعرف مؤرخا من مؤرخى المشارقة يقوم له ! لم يستطع بآثاره أن يقف فى وجه كتاب اليتيمة حين تخطى الشرق إلى الأندلس فسحر الناس ، وبهر الكتاب ! وقد توالى كتاب التاريخ من بعده أمثال : ابن الفرضى ، والحافظ الحميدى وابن بشكوال وابن الأبار ، وابن عبد البر بسام ، والفتح بن خاقان ، وابن سعيد ، والحجارى وعبد الواحد المراكشى ، وابن الخطيب ، والمقرى ، ومن يلف لفهم من المؤرخين ، فقصروا جميعا عنه ، وباحاذوه ! ولا نستطيع أن نخص كل هؤلاء بالتحليل ! ولكنا نعمد إلى اثنين ممن رزقوا الحظوة فى الذيوع ، والمعاصرة فى الحياة ، لنتخذ منهما دليلا على أثر الثعالبى فى كتابة التاريخ الأندلسى ، ثم أثرهما تبعا لذلك فى انتقال العدوى البديعية إلى من يليهما من الكتاب ! وهما : ابن بسام صاحب الذخيرة ، والفتح ابن خاقان صاحب القلائد والمطمح ، وما أغفلنا ابن الخطيب عن انتقاص ، لكن فضله ذائع وأسلوبه مشتهر وهو بعد لا حق بهما على أنه تأثر بثلاثتهم جميعا ، إذ قرأ ما خلفوه !

(يتبع)

محمد رجب البيومى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أبو العلاء والصور الشعرية

للأستاذ كامل السيد شاهين

١ — قد تأتيك الصورة الشعرية على حال من الاقتصاد ، تعرض عليك أثراً من آثار عاصفة نفسية عند الشاعر ، ثم تجرد هذا الأثر من سائر الشوائب التي تخفي دلالته ، أو تحد منها ، أو تصرف عنها ، كما تجد ذلك في قول ذي الرمة :

عشية مالي حيلة غير أنني
بلقط الحصى والخط في الترب مولع
أخط ، وأمحو الخط ، ثم أعيده
بكفي ، والغربان في الدار وقع

أراد أن يدلك على ما بلغه من الحيرة والشرود وعزوب العقل عندما شهد ربع مية. فعرض عليك لوحة تراه فيها جالساً أمام الربع ، يلتقط الحصى ويقذفه ، ويثبت الخط ويمحوه ، ثم يعود فيثبته ، وترى الغربان مع هذا جاثمات لا تنزعج ولا تفرق على ما عرف في الغراب من الحذر . . فكأنها قد عرفت ذهوله ، وزيغ بصره ، وعدم استجماع عقله فأمنت واطمأنت .

صورة يسيرة للحيرة ، أكدها وجلاها ، هذا الختام الرائع الذي يعطيك الدليل الحاسم على أن ذهوله وبهتته قد بلغت المنتهى ، حتى لتدركها هذه الطيور التي تتوثر الحيطة وتحمد في الطيران إذا أدركت أن الشر منها قريب .

وتجده كذلك في قول الحماسي :

يوم ارتحلت برحلي قبل برذعتي
والعقل مثله ، والقلب مخبول
ثم انبعثت إلى نضوي لألبسه
إثر الحدوج الغوادي وهو معقول

فأنت تجد هنا رجلا قد هاجت عواطفه ، وذهب ضبطه ، فهو يتصرف تصرف المتوله الموزع النفس ، فيضع رحله على جمله ، قبل أن يضع برذعته ، ويبعث جمله الطليح في إثر الغواني الراحلات وهو مشدود بعقاله .

فذانك تصرفان من التصرفات التي لا تقع إلا من عازب اللب .

وكلتا اللوحتين جاءت يسيرة عاطلة من كل زينة ، ملتقطة من الواقع المجرد ، وكل جهد الشاعر أنه جاء بصورته واضحة غير غائمة ، ولا محوطة بشيء يصرف عنها ، أو يقلل الاهتمام بها ، فبرز لنا ما وراء الأولى من السهوم والبهتة ، وما وراء الثانية من العزوب والخبل والاتلاه .

٢ — وشعر أبي العلاء لا تكاد تجد فيه هذه الصور البسيطة العميقة الأثر ، لأن عصر أبي العلاء ، وثقافته العلمية والفلسفية ، لا تدعانه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

يسير فى بزة البدوى ، عليه من الطبيعة آثار ورسوم تجدها فى تلويح الجلد ، وسفعة الوجه ، وتشقق القدم ، وانتفاش الشعر .

وإنما يعطيك عصر أبى العلاء وعلمه وفلسفته ، صورة متقنة ، فيها تنوق ، وعليها صبغ ، تحملك على الإعجاب بالعقل المبدع ، وبالفن المدروس ، أكثر مما تحملك على الانفعال الحار ، وأكثر مما تريك من العاطفة المشبوبة .

فهو معك كالدلالة الصناع ، تأتيها العروس فى خلقانها ، فلا تزال تقص منها وتسبل وتدقق وتغاظ ، وتكشف وتسدل ، وتهيل وتميل ، وتسود وتبيض ، وتحمر وتصفر حتى تبلغ بلاغها من الزينة والجمال ، وتخدع العين ما وسعها الاختداع .

على أن الصنعة قد تجيئك منتقبة فى احتشام وكأنها تعتذر عن وجودها ، وقد تأتيك عريانة وقاحاً لا تستحى ...

وأيسر مثل نضربه للصنعة اليسيرة قول الشاعر :

رب ورقاء هتوف بالضحا
ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفا ، ودهرا سالفا
فبكت حزنا ، فهاجت شجنى
ولقد تبكى ، فما أفهمها
ولقد أبكى ، فما تفهمنى
فبكائى ربما أرقها
وبكاها ربما أرقنى
غير أنى بالجوى أعرفها
وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

أنظر — وعاك الله — إلى موقع الفاءين فى البيت الثانى ، وإلى رد الأعجاز على الصدور فى الأبيات الثلاثة بعده .. فتلك جملة الصنعة فى هذه القطعة .

ولهذه القطعة نظير عند أبى العلاء ، من حيث الغرض الذى قيلت فيه — وهو إهاجة الشوق وبعث الحنين . فقد هاج البرق إبله ، فهن ينازعنه إلى معاطفهن بالشام فذلك قوله :

وكم هم نضو أن يطير مع الصبا
إلى الشام ، لولا حبسه بعقال
لقد زارنى طيف الخيال فهاجنى
فهل زار هذى الإبل طيف خيال
لعل كراها قد أراها جذابها
ذوائب طلح بالعقيق وضال
ومسرحها فى ظل أحوى كأنها
إذا أظهرت فيه ، ذوات حجال

فهو هنا يريك نضوه يهم أن يطير مع ريح الصبا إلى الشام ، فلولا أنه معقول لطار . ثم جعل يعجب من حنين إبله .. إنه يحن لأن طيفا زاره . أفتحن إبله لأن طيوفا زارتها كذلك؟ وماذا تكون هذه الطيوف؟ لعلها رأت فى كراها مجاذبتها لذوائب الطلح ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والضال فى العقيق . لعلها رأت سرحتها فى ظل شجر أخضر وقت الهاجرة ، تهدلت أغصانه فسترتها بأوراقها .

وأنت واجد فى هذه الأبيات رنة الوليد ، وصناعة حبيب ، وأقف بك عند البيت الثالث لتتملى هذا الجناس الحلو البارع (لعل كراها قد أراها) ، والجناس من الصناعات الدقيقة العسيرة ، ولكن هذه الصناعة فى كف لغوى ذواق كأبى العلاء سبيل ذلول .

ولو أنك قرأت البيت كله لظهر لك معنى دسه أبو العلاء فى أطواء الصناعة .

فهو يرينا أن الطيف عندما يزور العاشق ، فإنه يأخذ منه بالقرون والذوائب .

أما الإبل فإنها أخذت بذوائب شجر الطلح والضال . أخذه بذوائب الطيف الطارق .

ونعود إلى الخيال ، فنجده خيالا متبدداً ، لا يرسم لوحة شعورية متكاملة الجوانب ، على أن منه ما يدخل فى الإصالة كطيران النضو إلى الشام مع ريح الصبا ، وعمقه فى النفس ليس كعمق التجربة فى الأبيات النونية التى سلفت .

وحلاوة الأبيات ترجع إلى الصفاء الموسيقى الذى نجد قوامه فى صدى الألفات الممدودات ، وفى روعة الجناس ، وفى هذا الافتراض الساذج ، وهو أن الإبل قد رأت فى الكرى أنها آخذة بذوائب الطلح والضال .

وعلى الجملة ، فالصورة هنا غير متكاملة ، وأجزاؤها [1] ومضات فكرية ، وليست مصباحا متألقاً .

٣ — وقد تجىء الصورة مبنية على أصل واحد ، ثم يأخذ الشاعر فى حياطة ذلك الأصل ؛ لتتم الصورة بجوانبها وحواشيها وإطارها . كما ترى فى قول أبى العلاء من قصيدته التى بعث بها إلى أبى حامد الاسفرايينى :

يممته [2] ، ووددى أننى قلم
أسعى إليه ، ورأسى تحت الساعى
على نجاة من الفرصاد أيدها
رب القدوم بأوصال وأضلاع

وقد يسير إلى أبى حامد على نجاة ، والنجاة الناقة ، ولكن نجاته ليست من لحم وعظم ، بل هى مصنوعة من شجر الفرصاد ، فهى إذن سفينة ، قد جعلها الشاعر ناقة ، وهذا هو أصل الصورة ، ثم أخذ يتناول الجوانب المختلفات ، فقال : إن لها أضلاعا ومفاصل ولكن النجار رب القدوم هو الذى وثقها بهذه الأضلاع والمفاصل .

وإذا كانت الإبل تطلى بالقار إذا أصابها الجرب ، فإن (نجاته) تطلى بالقار على غير جرب :

تطلى بقار ، ولم تجرب ، كأن طلیت
بسائل من ذفارى العيس منباع

---

(١) راجع القصيدة فى السقط ج ٢ ص ٥٠

(٢) ضمير الغيبة للاسفرايينى المذكور .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وإذا كانت الإبل تضيق بالمحل ، وتهش للوادى الممرع ، فإن (نجاته) ليس كذلك :

ولا تبالى بمحل إن ألم بها
ولا تهش لإخصاب وإمراع

وإذا كانت الإبل لها مبارك ومناخات ، فإن (نجاته) عند ما بلغت القادسية أحاط بها نفر من أصحاب السلطان . فأناخوها فى ميناء ضيق :

والقادسية أدتها إلى نفر
طافوا بها فاناخوها بجمجاع

فهذا الاستقصاء وثق أصل الصورة ، وهو إخراج السفينة فى صورة ناقة . فقد جعل لها ما للناقة من أوصال وأضلاع ، ومن الطلاء بالقار ، والإناخة بالجمجاع .

وخالف بينها وبين الناقة فى أنها من الفرصاد ، وأن أضلاعها وأوصالها من عمل رب القدوم وأنها لا تبالى بالمحل ، ولا تهش للروض المريع .

وكل من الأوصاف الأولى ، والأوصاف الأخيرة كشف عن جوانب للصورة تتحقق به وجوه المقاربة والمباعدة .

وإذا كان أبو العلاء قد جعل سفينته (نجاة) من الفرصاد ، فإن أبا نواس قد جعل نعله (الحضرمى الملسن) قلوصا ، أى ناقة ، وأكمل لها الصورة على وجه آخر ، فقال يمدح الفضل بن يحيى بن خالد :

إليك أبا العباس ، من دون من مشى
عليها ، امتطينا الحضرمى الملسنا
قلائص لم تعرف حنينا إلى فلا
ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا .

فأبو نواس وصحبه قد امتطوا إلى أبى العباس - دون سائر الناس - نعالهم الحضرمية وجعلها أبو نواس (قلائص) ، لا تحن إلى الفلا ، ولا تعرف وثوب الفحول ، ولم تطل بالهناء وهو القطران .

فهذه الأوصاف تعطينا وجوه المخالفة ، وتقرب الصورة من حدود الألغاز .

كما قال أبو الطيب ذاهبا مذهب المتعلمين :

وحبيت من خوص الركاب بأسود
من دارش فغدوت أمشى راكبا

٤ - وخير الصور الفرضية : ما يتميه الشاعر ويستكمله ويحقق وجوده ، ويجعل أجزاءه متكاملة قادرة على الإيحاء .

ولكن أبا العلاء فى بعض صوره يضل هذه السبيل ، فيأتيك بصور فرضية غالية ، تنبو عن الصدق ، وتدخل فى الإحالة ، وربما جعلت السامع يسىء الظن به

فمن ذلك قصيدته التى قيل : إنه ارتجلها أول بلوغه بغداد ، فى رثاء الشريف المرتضى ، والد الشريفين الرضى والمرتضى .

فهذه القصيدة على ما فيها من أبيات عيون قد تضمنت صوراً غريبة مريبة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولولا أننا نعرف تاريخ القصيدة ، وأنها سابقة على إهانة الشريف المرتضى لأبي العلاء لقلنا - دون تردد - : إن أبا العلاء قد قصد إلى إهانة الشريفين ، بهذه الصور المضحكة من الرثاء .

وأشهد أنني ما قرأت هذه القصيدة إلا ضحكت ضحكا يبلغ القهقهة في بعض الأحايين .

وأي امرىء يملك نفسه عند ما يقول له أبو العلاء : « إن هذه الغربان النواعب ، طارت في الآفاق نواعيا للشريف الموسوى ، وهي مما يبهظها من الحزن ثقيلة النهض ، هافية على التراب .

ثم يدعو على الغراب دعاء إعجاب ... إعجاب بنطقه ، وبقوافيه . إنه شاعر للبين ، وهو عندما يقول : (غاق . غاق . غاق) إنما يرثي الشريف بقصيدة على روى القاف . قصيدة بنيت على الإيطاء ، وهو تماثل كلمة القافية بريئة من عيوب الإقواء والإكفاء والإصراف » . فذلك قوله :

طار النواعب يوم فاد نواعيا
فندبنه لموافق ومناف
أسف أسف بها ، وأثقل نهضها
بالحزن ؛ فهي على التراب هوافي
لا عاب سعيك من خفاف أسحم
كسحيم الأسدى ، أو كخفاف
من شاعر للبين قال قصيدة
يرثي الشريف على روى القاف

بنيت على الإيطاء سالمة من الإ
قواء والإكفاء والإصراف

على أن هذا الغراب الجون معجب بنفسه ، مزهو بلباسه ، أو ليس قد أتيح له أن يتخذ لباسا مناسبا ، وهو السواد ، أفلا يدعوه ذلك لأن يميس ويزدهى ؟ .

بلى . وإن البزاة لتحسده ؛ لأن لباسها البياض ، ومن لها لما نعى الشريف لها بلبس السواد ؟ على أن الطير كلها في الحزن على الشريف سواء ، أغربتها وبزاتها :

فذلك قوله ، والحديث عن الغراب :

جون كبنت الجون يصرخ دائبا
ويميس في برد الحزين الضافي
حسدته ملبسه البزاة ، ومن لها
لما نعيت لها بلبس غداف
والطير أغربة عليه بأسرها
فتخ السراة ، وساكنات لصاف

أي مذهب للحزن مع هذا الكلام ؟ ، وكيف السبيل إلى أن نستشعر أن أبا العلاء كان مفجوعا بموت والد الشريفين ، راثيا لهما في العزاء والسلوان ، وهو يشغلنا بهذا العبث الظريف ، ويجعلنا نرى الغراب يصرخ دائبا ، ويميس في برد الحزين ، أما كان في صراخه وحزنه ما يشغله عن الميسان في برده الأسود ؟

إننا إزاء هذا العبث لا نكتفي بافتراء

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الشفاه ؛ بل هو يحملنا - على رغم - على ضحك يشق الاشداق .

ولا يكاد أبو العلاء يخلص من هذه الصورة إلى أبياته الرائعة :

هلا استعاض عن السرير جواده
وثاب كل قـــرارة ونياف
هلا دفنتم سيفه فى قـــبره
معه ، فذاك له خليل واف
هيهات صارم للمنايا عسكرا
لا يقشى الكـــر والإيجاف

حتى تغلب عليه شقوة الإحالة ، فيمدنا بصورة أخرى ليست أبعد من اللعب من صورته الأولى . فيصف لنا الشريف فى قبره وقد زاره الموتى ، فلا يجد شيئاً يمنحهم إياه ، إذ لا يملك - واحر قلباه - غير كفنه ، والموتى أنفسهم لا يحتاجون إلا أكفانا ، فيغلبه الجود ، فيخلع عليهم أكفان أبلج مكرم الأضياف ! .

وكأن أبا العلاء أجفل حين رأى الشريف متجردا عريانا ، بعد ما وهب أكفانه لزوره من الموتى ، فاستدرك ذلك على عجل ، فقال : إذا خلع الشريف حلة على ميت أرسل الله إليه مثلها أضعافا .

ذلك حيث يقول ، والحديث عن الشريف الموسوى :

إن زاره الموتى كسام فى البلى
أكفان أبلج مكرم الأضياف
واقه ، إن يخلع عليهم حلة ،
يرسل إليه بمثلها أضعاف

ثم ينتهى إلى أن الجنان ملك للشريف ، يتصرف فيها ما شاء له أن يتصرف . فلا حظر بعد صيرورتها إليه ، فمفاتيحها منبوذة ، ورضوان مسير بين يديه للإتحاف :

نبذت مفاتيح الجنان . وإنما
رضوان بين يديه للإتحاف .

والصورة التى صور بها الرماح بعد موت الشريف مزجت بين الجمال والعبث فنحن نقبل من أبى العلاء أن يزعم أن الزوابل قد غدت - بعده - مضطربة المتون ، كليلة الأسنة .

ذهب الذى غدت الزوابل بعده
رعش المتون كليلة الأطراف

لكننا نعود إلى الابتسام عندما نراها تلعب أمامنا ، وتتعطف من الأسى ، كأنها الصلال الثائرة ونجد زجاجها تتصل بلهازمها وتعطفت لعب الصلال من الأسى

فالزوج عند الهـــزم الرعاف

وبعد :

فليتخيل القارئ الكريم معى ، الأغربة واقعة على منابر المساجد فى بغداد ترثى الشريف بقصيدة على روى القاف . وتميس فى برد الحزين الضافى ، والبزاة مغيظة تحسدها على ملبسها الأسود . وليتصور الشريف واقفا فى قبره يحتضن الموتى الذين يرحبون بمقدمه

(البقية ص ٨٢٠)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بالفقه والرواية عن الإمام الأوزاعي . ودخل البلد الحرام ، مكة فروى عن إمامها سفيان بن عيينة . ثم رجع إلى بغداد ، وقد خلت من أبي حنيفة إذ كان قد توفى ، وقام صاحبه الأكبر ، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الخزرجي ، مقام أبي حنيفة بجمع أصحابه ، ويملي المسائل ، ويفرع الأحكام عن أصوله ويفتي الناس بفقهه المنقول ، أو الفقه المستنبط على طريقته ، فأقبل محمد بن الحسن على أبي يوسف يتم تخرجه بين يديه . ويسعى إلى مطارحته ، ومباحثته ، بما يولد بينهما أنظاراً في وضع الأحكام الفقهية . إذا اتفقت بينهما ، وكثيراً ما لا تتفق ، فإنها قلما تتفق في صورتها الفرعية الجزئية مع ما رويا معا ، أو روى أبو يوسف لمحمد عن أبي حنيفة . وبهذا العمل : تجلت صورة جديدة من صور العمل الفقهي : ما كان الأفق الفقهي أضاء بها قبل محمد بن الحسن : وهي صورة التفريع المختلف في الأحكام الراجع إلى أصول متحدة : هي قوام المنهج المذهبي . بما يبرزه في الصورة الواقعية معنى إجمالية الأصول وتفصيلية الفروع . فكان محمد بإبراز هذه الحقيقة مبرزا العمل التفريعي في الفقه باختلافه عن العمل التأصيلي مع ارتباطه به ورجوعه إليه بحيث إن ثلاثة من الفقهاء يأخذون بالأصل الواحد فيذهب كل واحد منهم في تطبيقه والتفريع عنه مذهبا يختلف عن مذهب الآخر ، فكان به مظهر العمل التفريعي الذي هو اجتهاد مقيد به صح لأهل التفريع في كل مذهب وصف المجتهدين المقيدين ...

محمد الفاضل بن عاشور

(بقية المنشور على صفحة ٨١٧)

الكريم ، ويخلع عليهم أكفانه ، والأكفان تنزل من السماء عليه . ثم هو يبذل الجنة بجوده ويبقى رضوان غلاماً بين يديه . وليتمثل معي ، الرماح تنتوي ذات اليمين وذات الشمال كأنها الصلال ، حتى تصيب زجاجها لهازمها .

ثم ليحدثني عن لواعج الحزن وحرارة الوجد وحقيقة اللوعة في هذه الصور الغريبة التي لا أراها تخدم غرضاً إلا إظهار (التقاليع) العلائية .

أوليس القارىء عاذري إذا أنا التمست هذه القصيدة الرائية لأتروح بها ، وآنس بعبثها الظريف ، وخيالها الشارد .

إن أبا العلاء لو قال هذه القصيدة ساخرا من الشريفين عابثاً بهما وبوالدهما ، مبتغيا للإضحاك والطنز ، لكان ذلك أدخل وأشبه بما تعطيه القصيدة من حقيقة الرثاء . ؟

كامل السيد شاهين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من بحوث مجمع البحوث

كتب ظاهر الرواية

للإمام محمد بن الحسن

بقلم الفاضل بن عاشور

إذا كان لنسب من الأنساب العربية ، الكريمة الواضحة ، أن يهدم كل ما بنى له الشعر من فخر ، ورفعة ذكر ، فى الجاهلية والإسلام ، وهو واثق من أن معالم المجد التى أقامها له الإسلام ، أعز وأطول مما بنى له الشعر ، وأن ذكره فى العلم والفقه ، أتم خلوداً من ذكره فى الأيام والملاحم ، فذلك هو نسب بنى شيبان ، الذى ازدهر فى تاريخ الفقه الإسلامى باثنين من الأئمة العظام فى الفقه ، ما منهما إلا من هو سابق لأبى الصقر فى استحقاق مديح ابن الرومى الذى يقول فيه :

قالوا : أبو الصقر من شيبان قلت لهم :

كلا لعمرى ولكن منه شيبان

فكم أب قد علا بابن ذرى حسب

كما علت برسول الله عدنان

ذانك هما إماما بغداد فى الرأى والأثر : الإمام محمد بن الحسن الشيبانى ، والإمام أحمد بن حنبل الشيبانى .

ولد محمد بن الحسن بواسط ، ونشأ بالكوفة ، ثم دخل إلى بغداد ، ولقد كان الفقه فى أوضح معانيه ، توسعا فى الاستدلال ، واستنادا إلى الرأى ، وتصرفا فى الأثر ، هو الفقه الذى أقام معالمه ، ومهد مناهجه ، الإمام أبو حنيفة فى الكوفة ، ثم انتقل به إلى بغداد ، حيث توفى لأول عهد تأسيسها فى منتصف القرن الثانى . فكان المذهب الحنفى أول المذاهب الفقهية نشأة ، على الصورة المذهبية الواضحة ، ذات الأصول والقواعد ، التى وضعها له أبو حنيفة ، رضى الله عنه ، اتفاقا فى بعضها مع المذاهب ، واستقلالا ببعضها المذهبه . فاتصل محمد بن الحسن بأبى حنيفة فى السنين الأخيرة من حياته ، وتم تكوينه الفقهى به فى الكوفة ، ثم فى بغداد ، فكان فقيها عراقيا فى تكوينه ، كما كان الشافعى ، فى تكوينه فقيها مكيا . وكانت المذاهب تنتمى ، حوالى المذهب الحنفى ، بين الحجاز والشام ومصر ، على أصول ينفرد كل مذهب منها ، بالمجموع المكون لطريقته الفقهية ، على اشتراك فى بعضها بين مذهب أو غيره ، وانفراد بالبعض الآخر ، فمالك بالمدينة وسفيان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ابن عيينة بمكة ، والأوزاعي في الشام ، والليث بن سعد في مصر . وكان الفقه الناشئ في كل مصر من الأمصار ، والفتوى الصادرة عن كل فقيه من فقهائها ، معلوما لدى المصر الآخر وفقيهه ، علما يستوعب جملة من الأصول ، ثم يهتدي من استقرائها إلى طريقة تخالف ، في مناهجها الأصلية الطريقة التي يسير عليها هو في استنباط الفقه ، حتى لاحظ كل من الفقهاء على الآخر ما له من خصائص في أصوله المذهبية ، فأخذها عليه وناظره فيها ، بحيث أصبحت المذاهب الفقهية معروفة أصول كل واحد منها عند الآخر ، أكثر مما هي مشهور بها ، عند أهلها ، وفي عقر دارها ، فكان في ذلك ما يثير اهتمام الناشئين على طريقة من طرائق فقهاء الأمصار ، بالتعرف إلى طريقة الآخر ، والاتصال بها : ذلك كان شأن الشافعي ، وذلك هو شأن محمد بن الحسن الشيباني وذلك ما أخرج هذين الإمامين كما رأينا في ترجمة الشافعي ، قرينين قريعين نظيرين ، ترجع خصوصية كل منهما في الفقه إلى معنى من الجمع بين المذاهب ، هو الذي أخرج كلا منهما ، فقيها ، محدثا ، أثريا قياسيا .

وكما خرج الشافعي من بيئة الأثر إلى بيئة الرأي ، وسلك من منهج العلم ، إلى منهج الفقه ، فقد خرج محمد بن الحسن بعكس ذلك من بيئة الرأي ، إلى بيئة الأثر ، وسلك من منهج الفقه ، إلى منهج العلم ، فكان ذلك تلاقيا بينهما ، وائتلافا بين مذهبيهما ، إذ لم يكن فراق بيئة ، وأم أخرى ، مما يحدث تنافراً بين البيئتين ، ولا مما يفصل الراحل عن إحداهما عندما يتصل بالأخرى . حتى يقال في الراحل من هذه لتلك ، والراجع من تلك إلى هذه :

سارت مشرقة وسرت مغربا
شتان بين مشرق ومغرب

ولكن يصدق فيهما بما يكتمل لكل منهما مما تفرق بين الناس قول أبي تمام يفخر بنفسه :

قد سهلت منه الحجاز ورققت
منه الشآم ، وهذبته المشرق

أو قول أبي الطيب في الأستاذ ابن العميد :

ولقيت كل الفاضلين ، كأنما
رد الإله نفوسهم والأعصرا
فسقوا لنا نسق الحساب مقدما
وأتى فذلك إذ أثبت مؤخرا

قصد محمد بن الحسن ـ وهو فقيه عراقي ـ دار الفقه الحجازي بالمدينة ، واتصل بمالك ابن أنس وروى عنه الموطأ ، تلك الرواية التي كنا نوهنا بها في كلامنا على الرافد الأول من روافد الثقافة الإسلامية : وهو الموطأ .

وقصد دار الفقه الشامي ، وهي إلى فقه الحجاز أقرب منها إلى فقه العراق ، فتخرج

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بالفقه والرواية عن الإمام الأوزاعي . ودخل البلد الحرام ، مكة فروى عن إمامها سفيان بن عيينة . ثم رجع إلى بغداد ، وقد خلت من أبي حنيفة إذ كان قد توفى ، وقام صاحبه الأكبر ، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الخزرجي ، مقام أبي حنيفة بجمع أصحابه ، ويملي المسائل ، ويفرع الأحكام عن أصوله ويفتي الناس بفقهه المنقول ، أو الفقه المستنبط على طريقته ، فأقبل محمد بن الحسن على أبي يوسف يتم تخرجه بين يديه . ويسعى إلى مطارحته ، ومباحثته ، بما يولد بينهما أنظاراً في وضع الأحكام الفقهية . إذا اتفقت بينهما ، وكثيراً ما لا تتفق ، فإنها قلما تتفق في صورتها الفرعية الجزئية مع ما رويا معا ، أو روى أبو يوسف لمحمد عن أبي حنيفة . وبهذا العمل : تجلت صورة جديدة من صور العمل الفقهي : ما كان الأفق الفقهي أضاء بها قبل محمد بن الحسن : وهي صورة التفريع المختلف في الأحكام الراجع إلى أصول متحدة : هي قوام المنهج المذهبي . بما يبرزه في الصورة الواقعية معنى إجمالية الأصول وتفصيلية الفروع . فكان محمد بإبراز هذه الحقيقة مبرزا العمل التفريعي في الفقه باختلافه عن العمل التأصيلي مع ارتباطه به ورجوعه إليه بحيث إن ثلاثة من الفقهاء يأخذون بالأصل الواحد فيذهب كل واحد منهم في تطبيقه والتفريع عنه مذهبا يختلف عن مذهب الآخر ، فكان به مظهر العمل التفريعي الذي هو اجتهاد مقيد به صح لأهل التفريع في كل مذهب وصف المجتهدين المقيدين ...

محمد الفاضل بن عاشور

(بقية المنشور على صفحة ٨١٧)

الكريم ، ويخلع عليهم أكفانه ، والأكفان تنزل من السماء عليه . ثم هو يبذل الجنة بجوده ويبقى رضوان غلاماً بين يديه . وليتمثل معي ، الرماح تنتوي ذات اليمين وذات الشمال كأنها الصلال ، حتى تصيب زجاجها لهازمها .

ثم ليحدثني عن لواعج الحزن وحرارة الوجد وحقيقة اللوعة في هذه الصور الغريبة التي لا أراها تخدم غرضاً إلا إظهار (التقاليع) العلائية .

أوليس القارىء عاذري إذا أنا التمست هذه القصيدة الرائية لأتروح بها ، وآنس بعبثها الظريف ، وخيالها الشارد .

إن أبا العلاء لو قال هذه القصيدة ساخرا من الشريفين عابثاً بهما وبوالدهما ، مبتغيا للإضحاك والطنز ، لكان ذلك أدخل وأشبه بما تعطيه القصيدة من حقيقة الرثاء . ؟

كامل السيد شاهين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المجتمع الاشتراكي في ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

المذاهب الاشتراكية

على كثرة ما قرأت من كتب وبحوث في الاشتراكية لم أظفر بتعريف واحد يحدد معناها ، لأن مفهومها قد اتسع لكثير من المذاهب الاقتصادية المختلفة التي ترمي إلى تنظيم المجتمع ، وتهدف إلى تحقيق ما يمكن تحقيقه من المساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الأفراد الذين يعيشون فيه ، وقد نبتت هذه المذاهب في بيئات مختلفة ، وتأثرت بواعثها وأهدافها وبرامجها ومناهجها بظروف هذه البيئات ، وبخاصة الأوضاع الاقتصادية الجائرة التي سادت القارة الأوربية في أوائل القرن التاسع عشر ، ومع ذلك أطلق على كل مذهب من هـــذه المذاهب اسم « الاشتراكية » أو الكلمة التي ترجمت بهذا الاسم ، ومن ثم كان من الصعب أن يخرج الباحث بتعريف جامع مانع لمعنى هذه الكلمة التي أصبح لها رنين سحري في نفوس الجماهير الكادحة ، والقوى العاملة ، اللهم إلا أن يلجأ إلى التعميم ويرتفع إلى ما ارتفع إليه علماء المنطق حين عرفوا الإنسان : بأنه حيوان ناطق أو مفكر فيقول في تعريف الاشتراكية : إنها القواعد والنظم والقوانين التي يتمكن بها الأفراد من الاشتراك في موارد الدولة ، وبذلك تدخل كل هذه المذاهب الاشتراكية ـ مع اختلافها ـ في هذا التعريف ، كما يدخل كل الناس من مختلف الشعوب والأجناس في تعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق أو مفكر .

والواقع الذي لا سبيل إلى الشك فيه عند من يدينون بالإسلام أن هـذا الدين القيم لو عرفه على حقيقته الباحثون عن الحرية . والظامئون إلى تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية لوجدوا فيه ما يغنيهم عن كل هذه المذاهب ، ويقيهم ما اقترن بها وبالنظم الرأسمالية من مآثم ومظالم ، فإنه ـ وهو تنزيل من حكيم عليم ـ قد سوى بين الناس في الحقوق والواجبات ، وجعلهم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم أسرة واحدة ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وفرض لفقرائهم حقا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

معلوما فى أموال أغنيائهم ، وليس فى طبيعته وشريعة كتابه ما يسمح بقيام الأوضاع المنحرفة التى قامت فى المجتمعات الأوربية وغيرها ، ونشأ عنها الصراع الدموى الحاد بين الطبقات الظالمة ، والطبقات المظلومة ، أو الهيئات الحاكمة والشعوب المحكومة ، وإذا كان المجتمع الإسلامى قد وقع فيما وقعت فيه المجتمعات الأوربية من ظروف ، ونشأ فيه ما نشأ فيها من إقطاع ظالم ، ورأسمالية طاغية ، وحكومات فاسدة وفروق طبقية . فإن ذلك كله مرده إلى بعده عن الإسلام ، وتأثره بالتبعية للدول الأوربية ، ومن ثم كان القضاء على الاستعمار وظلم الإقطاع . وطغيان رأس المال . وفساد الحكم . والنظام الطبقى عملا إسلاميا من صميم الإسلام ، فاذا سمى هذا العمل وما إليه من الأعمال الإنشائية والمشروعات العامة التى قامت بها الثورة « اشتراكية ديمقراطية تعاونية » . فإن هذه التسمية لا تبعد بها عن إطار الإسلام ؛ لأن فى الإسلام أمثل ما فى الاشتراكية من تضامن وخير ما فى الديمقراطية من شورى وأعظم ما فى التعاون من بر ، فالمسلمون « تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم كما يقول الله فيهم « وأمرهم شورى بينهم » وعملهم يقوم على التعاون . كما يقول سبحانه « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » والحاكم والمحكوم فيهم كلاهما محكوم بما أنزل الله . مأمور بتأدية الأمانات إلى أهلها ، والحكم بما أنزل الله أساسه العدل كما يفهم من قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » فقد فسرت الأمانات بكل الحقوق والواجبات ، وفسر العدل بالمساواة والإنصاف . وتوخى القصد فى الأمور ، والجزاء والفداء ، والمثل والنظير ، فالعدل فى الحكم والعدل فى القضاء والعدل فى الجزاء والعدل فى تقدير الأجور ، والعدل فى تكافؤ الفرص . كل ذلك حق يجب أن يقبع ، وأمر يجب أن يطاع .

هذا إلى أن المؤمنين كما يقول الله فيهم : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » وكما يقول فيهم : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » وهم كما وصفهم القرآن « رحماء بينهم » . فالإخلاص والولاء والرحمة والتعاون على البر والتقوى ، يجعلهم « كالبنيان يشد بعضه بعضا » وكالجسد « إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ولا أعرف اشتراكية فى العالم ترتفع بالمجتمع إلى هذا المستوى الرفيع ، لأن الأساس الذى تقوم عليه الاشتراكية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى المجتمع الإسلامى يختلف اختلافا جذريا - كما يقال - عن الأساس الذى تقوم عليه المذاهب الاشتراكية فى غيره من المجتمعات كما قلت فى بعض ما كتبت وأذعت .

إنها فيه تعبير عن شعور كل فرد فيه بحق أخيه ، وعبادة مالية لا يكمل إيمان المؤمن بدونها ولا يسلم إسلامه بغيرها .

إنها فيه ثمرة طيبة بشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بأذن ربها ، وفى غيره ثمرة مرة لنزاع مرير وصراع طال مداه بين المال وأصحاب رأس المال . إنها فيه تقوم على الإيمان بالله خالق الجميع . ورازق الجميع ، وعلى أن المال لله فيجب أن يوجه لخير الجميع . ومصلحة الجميع وعلى أن المؤمنين إخوة فيجب أن يسودهم التضامن والتعاون وأن يشد بعضهم أزر بعض ، لأن بعضهم أولياء بعض .

هذا هو الأساس الذى تقوم عليه الاشتراكية فى المجتمع العربى الإسلامى ، بل فى ضمير كل فرد فى المجتمع العربى الإسلامى ، يؤكده النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه » وقوله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وقوله : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره إلى جانبه طاو » (أى جائع) ، وقوله « أى رجل مات ضياعا بين أحياء فقد برئ منهم الله ورسوله » ، وهذا الأساس هو - وحده - الذى تقوم عليه الحياة الطيبة للفرد والجماعة والأمة ، فليس المال ملكا خالصا للدولة حتى تجور على الأفراد فتأكل جهودهم . وتلغى وجودهم كما هو الشأن فى الشيوعية ، وليس ملكا خالصا الأفراد حتى يحق لهم احتجانه واختزانه . واستغلاله بطرق آثمة ، ووسائل ظالمة كما هو الشأن فى الرأسمالية ، إنما هو ملك لله ، يأخذ منه الإنسان بالوسائل التى شرعها الله كالعمل الصالح المثمر ، والإرث والهبة والوصية ، وتأخذ منه الدولة بمقدار ما يعينها على تأمين حدودها ، وتأكيد وجودها ، وتيسير أسباب الخير والحياة الطيبة لبنيها .

فالملكية الفردية مشروعة فى الإسلام على أساس أنها ملكية نسبية خالصة لا ملكية حقيقية تامة ، والضرر الخاص الذى قد يقع على بعض الأفراد يجب أن يتحمل فى سبيل رفع الضرر العام كما هى القاعدة الشرعية .

وهكذا نرى الاشتراكية فى إطار الإسلام خيراً لا يشوبه شر ، وعدلا لا يعيبه ظلم لأنها كما يقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، وكما يقول جل شأنه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ، وقد نظر إليها الرئيس جمال عبد الناصر هذه النظرة المؤمنة السليمة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فقال فى بعض ما كتب : (... وتتعارض المذاهب وتصطرع العقول والقلوب وتنشأ الجامعات المختلفة ، تدعو كل جماعة منها إلى مذهب ، ويشغل الفلاسفة وأهل الفكر فى كل أمة ليخترعوا (نظاماً) يفض المشكلة ويحل العقدة ، ثم نسمع عن الرأسمالية والاشتراكية ، والنازية والفاشية والشيوعية والفوضوية ، وعن نظم أخرى لايكاد يبلغها الإحصاء ، وليس فى واحد منها حل صحيح لمشكلة الفرد والمجتمع ، لأن مشكلة الفرد والمجتمع مشكلة إنسانية قبل أن تكون مشكلة مادية ، فلا سبيل إلى حلها إلا بتربية الشعور الإنسانى فى نفوس الجماهير ، وتوثيق أواصر الأخوة الإنسانية بين البشر .

ونقف نحن العرب المسلمين فى هذا الجانب من العالم ، نشهد الصراع الذى يدور بين هذه المذاهب المادية المبتدعة ، ونرقب المعارك الفاشية بين الشعوب وحكوماتها حول تلك المذاهب ، فنعجب أشد العجب من تلك المذاهب والذاهبين فى سبيلها من الحكومات ومن الشعوب على السواء لأن مشكلة الفرد والجماعة التى حيرت كل المفكرين والفلاسفة فى أوربا منذ قرنين أو منذ قرون قد وجدت الحل الصحيح فى بلادنا منذ ألف وثلاثمائة سنة . . منذ نزل القرآن على محمد بن عبد الله يدعو إلى الأخوة الانسانية ، ويفصل مبادىء العدالة الاجتماعية على أساس من التراحم والتكافل الأخـــوى ، وإيثار على النفس فى سبيل النفع العام للجماعة ، من غير طغيان على حرية الفرد . ولا إذلال له . وإنكار لذاتيته . إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ،

ذلك هو النظام .

فليكتف المفكرون والفلاسفة بما بذل من جهد ، ولا يبحثوا منذ اليوم عن حلول أخر لمشكلة الفرد والمجتمع .

إن عندنا الحل .

الحل الأول الذى نزل به الوحى على نبينا منذ ألف وثلاثمائة سنة هو الحل الأخير لمشكلة الإنسانية » .

حفظه الله وسدد على طريق الخير خطاه وأعاننا وإياه على تحقيق ما نصبو إليه من خير للعروبة والإسلام .

عبد الرحيم فودة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ علي العماري

— ٤ —

إن الدين عند الله الإسلام

ومؤلف كتاب (دين الله واحد) يزعم أنه نشر رسالته الموجزة ليكون لها ما يتمناه من أثر في العقول والقلوب والنفوس حتى يسود بين الناس السلام ، ويعم الوفاق والوئام ...

وعنده أن كل من يعمل على إثارة الخلاف في البلاد ، وبث روح التفرقة الخبيثة بين الناس لا يكون مخلصاً في إيمانه الديني ، ولا صادقاً في ولائه الوطني .

ونحن معه فيما يقول ، ولكن ما الوسيلة إلى هذا الهدف النبيل ؟ ...

كان على المؤلف أن ينحى باللائمة على كل من يعمل على التفرقة ، سواء كان مسلماً ، أو يهودياً ، أو نصرانياً ، وأن ينبه كل فريق على الأخطاء التي يرتكبها في حق الدين والوطن كما كان عليه أن يلتزم جانب الحق والصدق ، فلا يذهب يفسر نصوص دين من الأديان على ما يسوله له هواه ؛ فإن ذلك يؤدي إلى عكس مقصوده .

فليس مما يؤلف القلوب أن يعيب عابث بكتابها ، وبأصول دينها ، فالمؤلف ممن يصدق عليهم أنهم يعملون على إثارة الخلاف ، وبث روح التفرقة الخبيثة ؛ ذلك أنه قصر لائمته على فريق من علماء المسلمين ، وادعى في أكثر من موضع من كتابه أنهم يعملون على تمزيق الروابط ، وهذه عبارة من عباراته بنصها ، وفصها : (وإن الذي يملأ النفس أسى أن هذه الآية الكريمة - يريد قوله تعالى : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » ما تزال تجرى بهذا الفهم الخاطئ على ألسنة كثير من مشايخ المسلمين ، وعامتهم ، وهذا - ولا ريب - له أثر بالغ في تمزيق الروابط بين المسلمين ، وبين إخوانهم الأقباط ، وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم باسم الدين) .

فنهم آية على غير وجهها - كما يزعم - ذو أثر بالغ في تمزيق الروابط والذين فهموا هذا الفهم الخاطئ إنما هم (كثير) - هكذا - من مشايخ المسلمين ، وعامتهم ، ثم يستمر يسخر من بعض العلماء ، ويرميهم بالجهل .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فهل صحيح أن أحد العلماء استنكر أن يكون النصارى أهل كتاب ؟ حتى أرشده المؤلف إلى موضع ذلك من كتاب الله ! .

أما كان واجب الحق ، والإنصاف يقتضى المؤلف ألا يلقى التبعة كلها على مشايخ المسلمين وعامتهم ؟ ...

وأن يقول ولو كلمة عتاب رقيقة لأولئك الذين يعملون جاهدين على هدم الإسلام من المبشرين ، والمستعمرين وأذنابهم من إخوانه (الأقباط) وأن يوجه - إن كان صادق النية - ولو كلمة رجاء إلى رؤساء الحكومات المسيحية الذين يضطهدون المسلمين الخاضعين لهم ؟ ...

إن أحداً لا ينكر حتى من أشد المتعصبين على الإسلام والمسلمين أن الأقباط فى البلاد الإسلامية يلقون من التكريم ، ومن المعاملة المنصفة العادلة ما لا يظفر بشىء منه المسلمون المقيمون فى دول مسيحية ، متعصبة لمسيحيتها وأن الوعاظ الذين يدعون إلى الإسلام فى البلاد التى يذهبون إليها لا يسمحون لأنفسهم ولا يسمح لهم دينهم أن يلجأوا - فى دعوتهم - إلى أية وسيلة من الوسائل الدينية التى يتذرع بها المبشرون ، ويعتمدون عليها .

فهل من العدل والعقل أن تصدر دعوة للاتحاد ، والائتلاف بين أهل الأديان ، ولا نشير بكلمة واحدة لكل هذه المعاول التى لا تفتأ تهدم فى بناء الإنسانية ، فى حين ترفع حقيرتها بأن فهم بعض المشايخ لآية فى كتابهم - وهو فهم سليم - ذو أثر بالغ فى التفرقة ؟ !

إن المؤلف (الشيخ) الذى يبكى لأن أحد المشايخ قال : إن رحمة الله لا تنال القبطى ، لم يذرف دمعة واحدة على ما امتلأت به كتب المبشرين ، والمتعصبين من المسيحيين من الطعن على الإسلام ، وعلى نبى الإسلام ، وعلى السابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين الذين نشروا هذا الدين ، وآزروا نبيه ونصروه .

ولذلك يحق لنا أن نقول صادقين : إن صنيع هذا المؤلف معول هدام فى بناء الألفة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى .

* * *

والمؤلف يتلمس كل بارقة - ولو كان برقها خلبا - ليؤيد بها دعواه ، وهو لا يني يحمل النصوص فوق ما تحتمل ، أو يؤمن ببعضها ويكفر ببعض .

وليس هذا الصنيع - فقط - فيما يتعلق بآى القرآن الكريم ، بل هو يفعل ذلك بآراء الذين ينقل عنهم ، فيأخذ منها ما يظن أنه يؤيد دعواه ، ويتجاهل ما ينقض عليه هذه الدعوى ، وبذلك يسىء إليهم ، لأنه لو نقل آراءهم كاملة لرفع سوء ظن القارىء بهم .

فقد حاول المؤلف محاولة بائسة أن يعتمد على قوله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) فمن أول الطريق أراد أن يبعد عن الأذهان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أن المراد بالإسلام هو : هذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكتب تحت هذه الآية ، وبين قوسين : أى إسلام الوجه ثم أخذ فى شرح كلمة إسلام ، ناقلا ، فيقول : والإسلام مصدر أسلم ، وهـــو يأتى بمعنى خضع ، واستسلم ، وبمعنى أدى ، يقال : أسلمت الشىء إلى فلان إذا أديته إليه ، وبمعنى دخل فى السلم بمعنى الصلح والسلامة ، وبالتحريك : الخالص من الشىء ، ومنه قوله تعالى : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل) .

(وتسميته دين الحق إسلاما يناسب كل معنى من معانى الكلمة فى اللغة ، قال تعالى : ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) .

ثم يجىء بهذه العبارات ، ويضع تحتها خطوطا ، ليلفت على أنها موضع الإقناع وقد علم بذلك أن الحصر فى قوله : (إن الدين عند الله الإسلام) يتناول جميع الملل ، التى جاء بها الأنبياء ، لأنه روحها الكلى ، الذى اتفقت فيه على اختلاف بعض التكاليف ، وصور الأعمال فيها ، وقد أخبر القرآن فى غير موضع أن الأنبياء كلهم كان دينهم الإسلام .

ويمضى يستشهد بآى القرآن على هذا المعنى فيذكر إسلام نوح ، وإسلام إبراهيم ، ثم إسلام من فى السموات ومن فى الأرض .

وخلاصة كل هذا - عند المؤلف - أن اليهودية - الآن - دين حق ، وأن المسيحية - الآن - دين حق ، وأن دين محمد دين حق ، وهى كلها إسلام ، وهى كلها الدين عند الله ، وليس الأمر - كما يفهم المسلمون - أن الدين الحق ، هو الإيمان بالله ، وبالقرآن وبمحمد وهو الإسلام .

فأولا : هل يمكن فى نظر عاقل أن يكون الإنسان مقراً بوحدانية الله ، مسلم الوجه له وهو لا يؤمن بكتاب من كتبه - وهو القرآن - وبرسول من رسله - وهو محمد -) وإذا كان ذلك غير ممكن ، لأن معنى الإيمان بالله الإيمان بكل ما جاء من عنده . فكيف تكون اليهودية (الدين عند الله) هكذا بطريق الحصر ، وهى لا تؤمن لا بالقرآن ، ولا بمحمد ؟ وهذا يقال فى كل دين يخالف دين الإسلام .

إن النتيجة الحتمية للإيمان بالله إيمانا صحيحا ، هى الإقرار بأن الدين الذى جاء به محمد دين حق ، وإذا أقر إنسان بذلك وجب عليه أن يلتزم التكاليف التى جاء بها هذا الدين وهذا هو مايطلبه الإسلام من أهل الكتاب ومن غيرهم ، وإذن فمن تمسك باليهودية ، أو بالنصرانية ، ولم يؤمن بشريعة محمد ليس مسلما ، وليس ناجيا ، ولو أخلص العمل ، ولو آمن بالله ، واليوم الآخر ، وليس من أتباع (الدين عند الله) .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وثانيا : المؤلف نقل كل ما أورده هنا - عن تفسير المنار للسيد رشيد رضا ، فياليت شعري هل وقف المؤلف - وهو يطالع هذا التفسير عند هـــذه الكلمات أو استمر فى القراءة ، فوجد فى آخر تفسير هذه الآية قول صاحب المنار : (ولذلك كان إسلامهم - يريد أهل الكتاب - لا بد أن يستتبع اتباعك فيما جئت به ، لأن من كان كذلك فهو غير القلب متوجه - دائما - إلى طلب الحق فهو أقرب الناس إلى قبوله ، متى جاءه وظهر له) .

وثالثا : لقد أغفل المؤلف فى هذا الموضع قوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) - مع أنه تتبع كلمة إسلام فى القرآن - فهل صنع ذلك لأنه يعرف ؟ إن كان يعرف أن سياق الآيات فى هذا الموضع ترجح تفسير الإسلام بشريعة محمد فهو يهرب من كل ما يشير من قريب أو بعيد إلى ما ينقض عليه دعواه ، وإلى ما يفيد أن أهل الكتاب ملزمون بالإيمان بمحمد وبالقرآن .

ورابعا : أى مانع يمنع من تفسير الإسلام فى الآية الأولى بدين محمد عليه الصلاة والسلام والرسول قد بين فى حديث صحيح مشهور أن (الإسلام) بنى على خمس ، منها شهادة أن محمدا رسول الله ، وفى حديث ابن عمر الذى رواه عن أبيه عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما ، أن جبريل عليه السلام سأل النبى عن الإسلام ، فأجابه : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فصدقه جبريل .

فإذا كان مشهورا عند نزول القرآن أن (الإسلام) هو الإيمان بالله ، وبمحمد ، وبالقرآن ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وإذا كان القرآن خاتمة الكتب السماوية ، وهو يخاطب الناس جميعا ، إذا كان كذلك كان بديهيا أن يراد بالإسلام فى الآيتين : « إن الدين عند الله الإسلام » . « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » هذا الدين الجديد ، الدين الخالد ، الدين الذى كتابه القرآن ، ورسوله محمد ، والمدعو إليه الناس كافة .

وخامسا : من العجيب أن هذه السورة التى وردت فيها الآيتان السابقتان - وهى سورة آل عمران - أطالت الحديث عن أهل الكتاب ، وخاطبتهم ، ووبختهم على جحودهم بنبوة محمد ، وإنه ليكفى قليل من الإنصاف ، ومن احترام العقول ليؤمن من يقرأ هذه الآيات : أن أهل الكتاب مطالبون بالإيمان بمحمد ، وأن دينهم الذى هم عليه ليس شيئا ما لم يتبعوا هذا النبى ؟ (يتبع)

على العمارى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

القوم الصّوفيّة بقلم : ا.م.م. ماكين

ترجمة الأستاذ فتحي عثمان

— ٢ —

وبوفاة النبي بدأ تطـــور الفكر الديني الإسلامي يكتسب طابعاً جديداً ، فلم يعد هناك بعد « شيخ الأمة » الذي يحكم حكماً مطلقاً وبحق الدين ، والذي يعتبر الإمام الروحي الوحيد المنظم للجماعة كلها . وإنما اضطلعت الشريعة الإسلامية بهذه المهمة نفسها في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وظلت دعامة لتأمين الثقافة الإسلامية . وتمثل الفترة بين وفاة الرسول ، ونهاية العصر الأموي سنة ٧٥ م المرحلة الثانية لنمو الحركة الصوفية في عهد الخلفاء الراشدين ٦٣٢ : ٦٦١ م استمر النمو مع اختلاط بالسلفيـــة Orthodoxy ولكن كما يقول نيكلسون « كان محتوماً أن تؤدي القيم التي تفوق المألوف Extra ordinary والتي تضمنتها مواضع من تعاليم محمد وتجاربه إلى إغفال لأمور أخرى يعدها المسلمون الصالحون ضرورية بنفس الدرجة » .

وكان صحابة محمد في حماسهم لحفظ تراث الرسول قد عملوا على تأكيد الاهتمام بصور متفاوتة — على النظم الدينية للإسلام التي تمخضت بدورها في تطورها المحتوم عن مظاهر معينة محدودة للعبادة ، وفلسفة الحياة . ولم تكن هذه في ذاتها معارضة لتعاليم القرآن وإنما كانت نوعاً من المبالغة في بعض العناصر المفردة للتعاليم ، والأخلاق الدينية . ومن ذلك الذكر والتوكل ، وأولهما يرتبط بشعائر العبادة ، والثاني بالأخلاق ، وقد ظلت الأوراد الصوفية تكون العمود الفقري للموروث من النسك القديم .

وبدا أبو ذر وحذيفة الممثلين الرئيسيين لهذا التفكير بين صحابة الرسول . ويعتقد الصوفية في تقولهم أن حذيفة اليماني هو (صاحب السر) ، وقد التمس رأيه في بعض أسرار الروح ، كما جرى صحابة الرسول على سؤاله بشأن فتنة العامة والخاصة .

واتسعت الآفاق الطبيعية للإسلام حتى صارت تتضمن في نهاية العصر الأموي كل جزيرة العرب من ناحية ، وكل الشام والعراق ومصر إلى حدود أسبانيا من ناحية أخرى وتوغلت عبر آسيا الوسطى إلى نهر الأندس Indus ، بما قدم أعداداً من أتباع الدين الجدد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كان لهم طابع آخر ، وطاقات فكرية مختلفة . وغدت مدن المعسكرات العربية فى الأقاليم المفتوحة حديثاً مراكز للدعوة الدينية ، وقد ظلت هذه المدن حصونا للحضارة الإسلامية بما يفيض عليها من ثروة مادية وبشرية ، وتمثل الأخيرة فى الداخلين فى الدين أفواجا .

ومنذ أواخر عصر الخلفاء الراشدين ، كان أكثر ممثلى نزعة النسك الإسلامية يعرفون بأسماء متنوعة : فهم زهاد أو نساك أو قراء أو قصاص أو رهبان أو بكاءون ، وقد كانوا فى أول الأمر عناصر منعزلين ، ثم أخذوا يتركزون بالتدريج فى مدن العالم الإسلامى الجديدة وفى مقدمتها البصرة والكوفة ، وهما مركزان اشتهرا بنشاطهما العلمى والثقافى البالغ فى القرن الثامن الهجرى . ويشير جولد زيهر إلى طائفة من الناس تجردوا فى بداية العصر الأموى للعبادة وسموا بالعباد . وأقدم رائد عبد فيه الصوفية لهم هو الزاهد المشهور الحسن البصرى (المتوفى سنة ٧٢٨م) الذى يشير إليه المكى[1] باعتباره أول من عبر عن هذا الفرع من المعرفة ، وقد قدم تعاليمه الصوفية إلى أهل عصره خلال عظاته التى ألقاها فى البصرة .

وجاءت المرحلة الثانية المتميزة فى نمو الصوفية فى الفترة التى أعقبت تولى العباسيين الخلافة ، وفيها صارت الحركة أكثر وعيا بذاتها شيئا فشيئا ، واتخذت نتيجة لذلك طابعا متميزا تحت تأثير عوامل التمدد الداخلى المجتمع الإسلامى ونتيجة لرد الفعل الطبيعى والضرورى للظروف السائدة . وقد نتجت للحركة فى مجرى نموها ثروة من المادة التى يكتنفها الاختلاط والتداخل فى الغالب ، والتى تفلت من القياس والتصنيف . ولكن يمكن على أية حال تمييز ثلاثة اتجاهات لهذا النمو : أولها تطور مذهب الصوفية بأن أخذ فى التحول من مبادئ أخلاقية بسيطة كى يتضمن مفاهيم عن الحياة الباطنية mysiical والاتصال بالله theosophical مع ميول قوية إلى وحدة الوجود peintheistic tendencies وثانى هذه الاتجاهات هو اتجاه طبقات الصوفية إلى الاتحاد والترابط إذ تعرضوا لمعارضة فى دوائر علماء الكلام فاكتسبوا شعور الجماعة . وثالث الملامح الرئيسية هو نقلة الاهتمام من الصوفية إلى (القوم) ، وتمخض هذا عن أداة شعبية للحركة تعرف « بالطريقة » ، وبها اكتسبت الصوفية تميزا عمليا دقيقا فى نسق المجتمع الإسلامى وقائمة محتوياته .

---

١ — قوت القلوب جـ ١ ـ ص ١٠٠ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويلقى القرن التالى لمجىء البيت العباسى ظلالا على التغيير المنتظر حدوثه فى تطور الحركة . فلم يتخذ طابعها العام بعد شكلا محددا . فهى بالنسبة لقسم كبير من المنتمين إليها لا تزال تعنى التجرد المخلص للواجبات الدينية ، فإذا ما تلمسنا مفهوما أوضح وجدنا أن ملامح الفكر الصوفى البارزة ظلت باقية على إحالهـــا فى طابعه الزهدى والتأملى ascetic, quietistic حتى نهاية القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، وكان هذا الفكر يجد تعبيراً إقليمياً فى المراكز المختلفة العالم الإسلامى مثل البصرة والكوفة وخراسان ومرو . وعلى أية حال فقد أخذ يطرأ تغيير تدريجى على الطابع العام للمذهب الصوفى منذ القرن الثالث الهجرى / الثامن الميلادى فصاعدا . وأخذ الأفق الصوفى يتسع من نزعات زهدية تأملية إلى مذهب عن الحياة الباطنية، mystical والاتصال بالله theosophical نتيجة لتزايد النشاط الفكرى وطاقة الإبداع مما يميز القرن الأول من الحكم العباسى (١) .

ويرى نيكلسون أن عهد الاتصال بالله theosophical era فى الصوفية يستهل بمعروف الكرخى (المتوفى سنة ٨١٥م) . وهو يلاحظ أننا نميز فى أقوال (معروف) الأول وهلة آثارا بادية للعيان لتلك الأفكار التى ظلت حتى يومنا هذا عنصراً أساسياً ومميزاً للصوفية .

هذه الصوفية الفلسفية الداعية إلى الاتصال بالله Theosophical Sufism ، والتى يمثلها معروف الكرخى وأبو سليمان الدارانى (المتوفى سنة ٨٣٠م) وذو النون المصرى (المتوفى سنة ٨٦١م) قامت وبلغت شأوا بعيداً من التقدم فى نصف القرن الذى يشمل فى شىء من المرونة عهود المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل بين عامى ١٩٨ : ٣٤٧هـ/ ٨١٣ إلى ٨٦١م » . وبدت النظرية الصوفية

(١) يعزى أصل المذهب الصوفى إلى مصادر وافدة مختلفة : مثل الفيدا والأفلاطونية المحدثة وفارس . ويرى نيكلسون أن هذه الظاهرة لا تقبل تفسيرا مفردا ، وإن كانت تبدو نتاجا لاتحاد الفكر الإغريقى بالفلسفة الشرقية . وقد نقل إلى=

=الأستاذ أوبرى سنة ١٩٠٦ أنه يبدو أن نيكلسون قد غير رأيه بصدد هذه النظرية فى أخريات حياته وارتأى أن للمذهب الصوفى يرجع فى أصوله إلى القرآن أكثر من أية عوامل خارجية . ويخالف لينجز Lings هؤلاء الذين يكتبون أن « الصوفية تتألف من زهد مثالى تبرزه ـ الأشعار والرسائل الصوفية والنداءات المتضارعة ، فى حين أنه ما من شىء من هذا يوجد فى الجيلين الأولين للإسلام ، وما من شىء من هذا يمكن أن يعتبر من الملامح الأساسية للصوفية » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أكثر روعة بجهود أبي يزيد البسطامي (المتوفى سنة ٨٧٥ م) والجنيد البغدادي (المتوفى سنة ٩١٠ م) والمنصور الحلاج (المتوفى سنة ٩٣٢ م) والحاكم الترمذي (المتوفى سنة ٨٩٣م) وكل منهم أبرز خصائص متميزة للمذهب.

وفي خلال هذه الفترة نفسها بدأ الصوفية يرون دلائل المعارضة لنزعتهم من علماء الكلام. وقد تطورت هذه المعارضة ضد حركة الصوفية بالتدريج. إن صوفية النساك والأتقياء في فترة النشوء لم تكن تهدد ماديا ما يقرره علماء الدين القدامى من أفكار intellectual system بل على العكس أعانت تلك الصوفية على استكمال المفهوم القرآني للتوحيد، وكان الفارق بين الفريقين فارقا في توزيع الاهتمام بين مسألة أو أخرى أكثر من أن يكون فارقا في مضمون كل من النزعتين، ولكن الاتساع التدريجي للحركة بما اقترن به من نمو مذهب في طيات الكتمان بدأ في أعين علماء الكلام ذوي النفوذ طفيليا غير مرغوب فيه على مجال الفكر الديني الإسلامي يستحق الاقتلاع! وكان نفوذ القادة القدامى يستند إلى أنهم الحراس الساهرون على الجماعة الملتفة حول الشريعة والملتزمة بها، وهؤلاء لم يكونوا مستعدين لمجابهة النظرية الصوفية التي قد يبدو أنها تطرح جانبا مثل هذه السلطة الثابتة! ورمى الذين عجزوا عن مسايرة العلم السلفي التقليدي حتى أضيق حدوده وتفاصيله بالوصف الحاضر المعد - الزندقة!!

ويستحق تاريخ الحركة المعارضة للصوفية بحثا مستقلا ويكفي أن نقول: إن تطرف العلماء الحرفيين في النكير على أصحاب النظريات الصوفية قد استثار تطرفا مماثلا في هياج هؤلاء الأخيرين، وإن كان النزاع قد جرى إلى حد كبير على المستوى النظري.

وأعان الاعتراف الرسمي بمذهب المعتزلة في عهد المأمون، الذي انتهى بتولي المتوكل الخلافة سنة ٨٤٧ م، على الزياد من حدة الخلاف بين المنهج الحدسي intuitive، والمنهج العقلي rationalist في البحث الديني. وجاء ظهور صورة من السلفية المتطرفة في عهد المتوكل مؤديا إلى تفاقم الاتساع في شقة الخلاف بين الصوفية ومعارضيهم. وشن الخليفة المتوكل الذي اتخذ وضع حامي عقائد الجماعة، حملات الاضطهاد التي شملت على قدم المساواة اليهود والنصارى والمعتزلة والشيعة والصوفية، أو بعبارة موجزة كل من انحرف عن نطاق السلفية السنية في أضيق حدودها، وترتب على ذلك أن خرج قادة الصوفية على

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الالتزام بعقائد الجماعة السائدة وواجهوا الفقهاء بما لديهم من أعداد تتزايد باستمرار فى صراع مكشوف ، بعد أن فشلت معارضة الأخيرين فى إسكات الصوفية رغم تعرضهم لمحاكمة كبرى بلغت الذروة بإعدام المنصور الحلاج سنة ٩٢٢ م . وارتبط نمو مقاومة الفقهاء من ذلك الوقت فصاعداً عن قرب بتاريخ الحركة الصوفية ، وكان لاصطدام هذه المقاومة بتلك الحركة خلال أدوار نموها التالية دوى تردد صداه فى مناقشات الأدب الصوفى إذ ظل أحد مواضع البحث الدائمة منذ ذلك الوقت فصاعداً .

* * *

وكانت أسس النظرية الصوفية Sufi rheory والتجربة الصوفية practice قد وضعت من قبل خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وغدت الحركة قرب نهاية القرن نفسه متينة البنيان بما اجتمع لها من أصول traditions تعوزجانبها . ومنذ القرن الرابع الهجرى / التاسع الميلادى تقدمت الصوفية نحو شتى اتجاهات جديدة ، متحولة « عن الركون إلى حمى الإسلام فى اندفاع صوب وحدة الوجـــود ، واسقاط التكاليف الشرعية entinomianism ، وهى نزعة هززها التأثير المتزايد للأفكار الفلسفية الإغريقية وبخاصة نظرية (الصدور) » ، ويقابل هذا التوسع الداخلى للحركة اتجاهها لتصير ظاهرة تاريخية واعية بذاتها . وكان الهدف فى ذلك الوقت أحوج ما يكون إلى الثبات والاستقرار إذا ما أريد له البقاء . وربما كانت حملة التشهير التى بلغت ذروتها فى إعدام الحلاج قد وضعت هذا الدرس أمام أنظار قادة الصوفية « إن هناك حاجة عاجلة إذن - كما يقول آربرى - لرد اعتبار الحركة إذا أريد لها البقاء فى تلك الفترة التى كانت أقل تحررا عن ذى قبل ، وأريد لها الاستمرار فى أن تكون قوة لها أثرها فى الجماعة . وولدت الحاجة الرجال ، وأنتج الرجال كتبا صالحة للغرض بدرجة فائقة » . وكان من نتائج ذلك أن شهد القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى قيام أفراد من المفكرين الخلاقين ، وظهور طراز رفيع من أصحاب النظريات الصوفية ، وهؤلاء أنتجوا مؤلفات منهجية محكمة لدراسة الصوفية فى شتى مجالاتها : النظرية والتجربة والتاريخ ، وهكذا حدد هؤلاء معالم الحركة ، وأكدوا ثراءها فيما خلفوه من تراثها . ومن أشهر مؤلفات هذه الفترة فى المذهب الصوفى اللمع للسراج (المتوفى سنة ٩٦٨م) وقوت القلوب لأبى طالب المكى (المتوفى سنة ٩٩٦ م) ، والتعرف للكلابذى (المتوفى سنة ١٠٠٠م) وكل هذه المؤلفات قـــد وصلت إلينا . أما ما كتبه فى التراجم أبو سعيد بن العربى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

(المتوفى سنة ٩٥٢ م) وأبو محمد الخلدى (المتوفى سنة ٩٥٩ م) فلم يكتب له البقاء ، بينما تعد طبقات الصوفية للسلمى (المتوفى سنة ١٠٢١ م) وحلية الأولياء للأصفهانى (المتوفى سنة ١٠٣٨م) من الجهود البارزة فى مجال التاريخ للصوفية .

وأخذ اهتمام قادة الصوفية بتأكيد طابع الحركة المستقل المتميز يتجلى للعيان بصورة متزايدة فى مؤلفات الفترة التى شهدت التصوفية كجماعة : (الطائفة الصوفية) a constitnent of Musiim soriety وعلى الرغم من أن كيانا ككيان الصوفية لم يؤصل وجوده عضويا فى وكائز المجتمع الاسلامى ، إلا أن قيام التفرقة النظرية تعكس فى الحقيقة : إلى أى مدى صارت الحركة عرضا للأفكار فى وعى بالذات .

ويمكن أن يمثل هذا فى رائد من أصحاب النظريات الصوفية هو القشيرى (المتوفى سنة ١٠٧٤ م) الذى خاطب الصوفية فى رسالته المشهورة ، فكتب أن « الرسالة » قد كتبها فقير فى أعين الله هو عبد الكريم ابن هوزان القشيرى إلى الجماعة الصوفية فى ديار الإسلام سنة ٤٣٧ هـ وفيها تناول حياة شيوخ الطريقة وطرائقهم وخصائصهم وحياتهم العامة وأحوال قلوبهم واعتقادهم ووجدهم ومقاماتهم من البداية إلى النهاية حتى يتقوى بذلك المريد . ومن مفهوم التعبير عن الحركة الصوفية بالجماعة أيضا ما يتضمنه ذلك من الدعوة إلى الإعتراف بعلم الصوفية فرعا أصيلا من المعرفة الإسلامية . وقد أبرز السراج فى جرأة هذا المطلب فى تقسيمه للمعرفة ثلاثة أقسام : الحديث والفقه والتصوف ، وكلها معا تؤلف علوم الدين وهو يمضى قائلا أن كل جماعة من المشتغلين بأحد هذه الأقسام الثلاثة لها مؤلفاتها ومصنفاتها وأقوالها ، ولكل فرع أقطابه من العلماء الذين يدين لهم عامة أهل العصر من طلاب المزيد من المعرفة وهو يذهب إلى أبعد من ذلك فى الانفراد بتأكيد أن علم الصوفية هو من الخصائص التى لا يرجع فيها إلى غير العارفين بالصوفية . ويتردد صدى هذه الدعوى لدى كاتب متأخر هو الشعرانى (المتوفى سنة ١٥٦٥ م) عندما قرر نظرية استقلال علم الصوفية كفرع علمى فى نطاق الشريعة ، بنفس الدرجة التى يستقل بها المعانى والبيان مع دخولهما فى نطاق علوم اللغة .

(يتبع)

فتحى عثمان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

محمد رسول الله

للأستاذ مصطفى عبد الواحد

يعجب المرء من موقف طائفة من المستشرقين يبهرهم نور الإسلام ، وتسترعى أبصارهم الجوانب الإصلاحية المتكاملة فى رسالة محمد ، ولكنهم لا ينفكون من أسر العصبية ، ولا يبرأون من ضغائن التاريخ فيؤدى بهم ذلك إلى كثير من التخبط ، وأنواع من المغالطات ، حين يكتبون عن ذلك الرسول العظيم ، ويقفون أمام دعوته ، فيحتالون على التاريخ ويفترون ، ويفترضون ويقدرون ، كل ذلك ليستطيعوا التوفيق بين إعجابهم بمحمد ، مصلحاً وزعيماً ومعلماً ، وبين كفرهم برسالته وإصرارهم على أنه لم يتصل بالسماء ، ولم يتلق أمانة الوحى ، ولم يحمل المشعل الذى حمله النبيون من قبله .

* * *

وتجد لهؤلاء المستشرقين مسالك مختلفات فى شأن محمد ، وتعليل رسالته .

كيف أمكن ذلك العربى فى تلك الفترة المظلمة من تاريخ العالم ، وتاريخ أمته أيضا أن يخرج إلى الناس بتلك الدعوة .

من أين له تلك العقيدة عن الله وعن الآخرة وتلك الفكرة المتكاملة عن الإنسان والحياة وهذه الحقائق التاريخية الصادقة عن النبيين من قبل التاريخ ، وهذه الجوانب الحكيمة الناضجة من الأحكام والشرائع ، وهذه البرامج من العبادات والتكاليف . . ؟

إنها غاية لم يرتق إليها قبله أحد من قومه ، وليس لها تعليل من البيئة أو التاريخ ، فقد كانت البيئة راضية قانعة بأوضاعها ، مطمئنة إلى عقيدتها ، إلا القليل من أفراد يعدون ويسرفون ، ولم يتقدم لهذه البيئة فى تاريخها أن طمحت إلى زعامة فى أمر العقيدة أو طالبت فكرة الدعوة منذ إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام .

وقد كان فى العالم فى ذلك الحين شعوب متحضرة ، وأمم تمسك بلواء الثقافة وفى أيديهم كتب سماوية ، وغير سماوية ، وأولئك كانوا أجدر بالبحث والتفكير فى مخرج من أزمة العقيدة وأزمة الخلق والحياة فى ذلك العالم .

ومحمد نفسه ، ماذا كان يعنيه من أمر قومه فضلا عن أمر العالم لقد كان يملك وهو الذى نأى عن خزى الجاهلية ، أن يظل فى تأملاته ويرتفع فى خلوته عن كل ما يعانيه الناس ، لم يكن من الزعماء ولا الرؤساء ، ولم يكن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

متلقياً عن مدرسة ، ولا وارثاً لتعاليم ولا متأثراً ببيئة تدرس وتفكر ، وتعالج أمر الدين .

وإذن كيف استفاد محمد من هذه الدعوة ؟ ومن أين له عناصر تلك الرسالة ؟ .

تراث الحنفاء :

فمن هؤلاء من يرى أن محمدا تأثر بالحنفاء من العرب قبله ، وأنه واحد منهم ، نأى عن الوثنية مثلهم ، وفكر في أوضاع قومه المضطربة ، وأطال في ذلك التفكير ، واعتزل قومه وخلا بنفسه ، حتى اهتدى إلى طريق يصلح قومه . ويجمع أمرهم ، وهو الإسلام .

ونقف أمام هذا التعليل ؛ لنرى مبدى الإنصاف في موقف هؤلاء . وجانب الحق الذي وقفوا عنده .

أي أثر تركه الحنفاء في قومهم ، وأي تراث لهم يمكن أن يكون قد استفاد منه محمد . في كل مجتمع ، وفي كل جيل ، يعيش أفراد يعتزلون كثيراً من أوضاع الحياة من حولهم ، ويرفضون كثيراً من المبادىء والقيم التي يتواضع عليها مجتمعهم ، ولكنهم يقنعون بذلك ، ولا يبلغون أن يغيروا شيئاً في حياة الناس ، ولا يحملون أحداً على مشاركتهم الطريق الذي اختاروه لأنفسهم ، إن شذوذهم عن الناس يجعلهم أفذاذا مشهورين ، ولكنها شهرة الغرابة والندرة التي تجعل مسالكهم طريقة وعجيبة .

وعلى هذا المثال كان الحنفاء من العرب .

لقد رفضوا عقيدة الجاهلية ، وكرهوا مشاركة قومهم حياتهم الآثمة الظالمة ، ولكنهم لم يزيدوا على ذلك ، فلم يقدموا عقيدة واضحة ولم يدعوا إليها ، ولم يهتدوا إلى حل للظالم الاجتماعية التي تعج بها الحياة من حولهم ، وحسبهم ذلك رشدا وهدى .

على حد قول ورقة بين نوفل ، وفي زيد ابن عمرو بن نفيل عند ما صرع عند إيابه من الشام وهو يبحث عن الدين الحق :

رشدت ، وأنعمت ابن عمرو ، وإنما
تجنبت تنوراً من النار حامياً
بدينك رباً ليس رب كمثله
وتركك أصنام الطواغي كما هيا

وكان من هؤلاء الحنفاء . من بحث عن مخرج من أزمة العقيدة ، وأدى به الأمر إلى اعتناق دين من الأديان السائدة ، فتنصر ، مثل : ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث ، وأولئك لم يقدموا لقومهم شيئاً ، وكفاهم أنهم ارتاحوا إلى رأي في مجال العقيدة ، وإن كانت مشاعر القلق لم تختف من نفوسهم ، وما زال بهم ترقب إلى ضياء يغمر مجاهل الحياة والفكر . فهم لم يزيدوا شيئاً في تجاوب العرب الدينية ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولا تقدموا بهم خطوة فى طريق الهداية .

لقد كان لهم مجال محدود تتردد فيه أفكارهم وتسرى تطلعاتهم ، نقرأ ذلك فى أخبارهم التى أوردتها كتب السيرة ، ونرى فيها مجال بحثهم ومنتهى آمالهم . . . البحث عن عقيدة تطمئن لها النفس وكفى .

اجتمعت قريش عند صنم لهم . قد اتخذوا ذلك اليوم عيداً ، وحضرهم فى ذلك ورقة ابن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبدالله ابن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، فاجتمعوا لذلك ، وخلصوا نجياً ، فقال بعضهم لبعض : تصادقوا ؛ وليكتم بعضكم على بعض . فقالوا : أجل .

فقال لهم ورقة بن نوفل : تعلمن ، والله ، ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه ، ما حجر تطيفون به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضر ؟ يا قوم : التمسوا لأنفسكم الدين .

فخرجوا عند ذلك يضربون فى الأرض ، ويسألون عن الحنيفية ـ دين إبراهيم عليه السلام ـ فأما ورقة بن نوفل فتنصر واستحكم فى النصرانية ، وابتغى الكتب من أهلها وقرأ الكتب حتى علم علما كثيرا من أهل الكتاب ،

وأما عثمان بن الحويرث ، فسار إلى قيصر فتنصر ، وحسنت منزلته عنده ، وأما زيد ابن عمرو بن نفيل فأراد الخروج فحبس .

ثم إنه خرج بعد ذلك ، فضرب فى الأرض حتى بلغ الرقة من أرض الجزيرة ، فلقى بها راهبا عالما ، فأخبره بالذى يطلب ، فقال له الراهب : إنك لتطلب دينا ما تجد من يحملك عليه ، ولكن قد أظلك زمان نبى ، يخرج من بلدك يبعث بدين الحنيفية .

وأما عبد الله بن جحش ، فأقام بمكة حتى بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، فاتبعه .

فإذا استفاد محمد من أولئك الحنفاء .

وأى صلة بين دعوته ، وبين آرائهم . . ؟

حقا لقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن عمرو بن نفيل ، وأعجب به .

ولكن الذى يبحث التأثر والتأثير بين الرجلين عليه أن يسأل أولا :

أى شىء كان يملكه زيد بن عمرو بن نفيل لينقله عنه محمد . . ؟

عقيدة التوحيد ورفض الأصنام ؟ .

لكنها فى حد ذاتها ملة إبراهيم ، وعليها كان العرب قبل أن يدخل عليهم عمرو بن لحى عبادة الأصنام .

وهو إن كان قد اهتدى بفطرته ورجاحة عقله إلى معرفة الوحدانية إلا أن العقيدة ليست ذلك فحسب ، فكيف نعرف ذلك الإله وكيف نعبده ؟ وأين جوانب تلك العقيدة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

التي تملأ النفس وتحيطها وتوجهها في سبيل الحياة ؟ .

وهل الدين عقيدة فحسب ؟ .

إن زيدا كان من طلاب الحقيقة ، وقد كانت الحيرة تملأ فؤاده وهو يقول : اللهم إني لو أعرف أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكني لا أعلم !!

وقد صرع في سعيه إلى الدين الحق . ولذلك كان يذكره النبي صلوات الله عليه بعد رسالته ، ويقول : « إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده » أي أنه تميز عن قومه ، وانفرد عن جيله الغارق في الظلمات .

ولم يؤثر عن الرسول صلوات الله عليه أنه سلك مسلك أولئك الحنفاء ، ولا اتبع طريقهم ، ولا حاور في العقيدة ، أو جادل في الدين . بل إن كتب السيرة والحديث تذكر بعض مواقف الرسول من هؤلاء ، وكيف أنه لم يكن يدور بخلده شيء مما كانوا يعانونه من أمر الدين ، ولم يشتغل بشيء مما اشتغلوا به .

يروى البخاري : أن الرسول لقي زيد ابن عمرو بن نفيل ، وكان مع الرسول غلامه (زيد بن حارثة) فدعاه الرسول إلى أن يأكل معهما ، وكان مع الرسول سفرة قدمت إليه فقال زيد بن عمرو : إني لا آكل مما لم يذكر عليه اسم الله .

ويحاول العلماء الإجابة عن ذلك . كيف كان زيد بن نفيل يهتدي إلى ذلك ، وقد كان الرسول أولى بهذه الفضيلة في الجاهلية؟ فيرى بعضهم : أنه ليس في الحديث الإشارة إلى أن الرسول أكل مما لم يذكر عليه اسم الله ، ويرى آخرون أن الأشياء قبل ورود الشرع على الإباحة .

ولكن المهم في الخبر ، كيف أن محمدا كان على بساطته لا يعنى نفسه ، ولا يتكلف البحث كهؤلاء ، مما يبعد عنه كل شبهة في أن يكون استفاد شيئا منهم ، أو اتجه في أمر العقيدة والدين وجهتهم .

ولو أن محمدا اقتفى آثار الحنفاء، لما جاوز في بحثه عن الحق ذلك المدى الذي بلغوه، ولكان قصاراه أن ينتصر ، أو يقنع بنبذ الأوثان ، واعتزال مفاسد قومه .

إن هناك فارقا أصيلا بين موقف محمد في دعوته من قومه ، وموقف قومه منه ؛ وبين موقف الحنفاء، مما يجعل المقارنة بينهما لا تصلح ولا تستقيم ؛ بل إن الفارق بينه وبين هؤلاء الحنفاء هو الفارق بين الأرض والسماء ، للحديث بقية ،

مصطفى عبد الواحد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

العلم بين السلام والخصام

للأستاذ على الجندى

رسول سلام ، هناء الأنام ... وعد فقيراً أخا عيلة
وأمنهم بعض أوطاره ... و « قارون » يكبو بمضماره
يؤم إلى ظله الحائرون ... فليت الورى عرفوا سره
فيسرون فى نور أقماره ... فلم يعد جار على جاره
هو المجد فالبس دبابيجه ... ولا تخزوه لقتل البرىء
وكل جبينك من غاره ... فآدم حمل أوزاره
تخير - سبحانه - وصفه ... فيا بؤس للعلم فى عالم
به ، فتسامى بمقداره ... يصير سلاحا لأشراره
وميز بالفضل أربابه ... ويا أسفا للجهال النضير
وأسنى مراتب أحباره ... يحول العمى دون إبصاره
فمن لم يرد صفوه لم يزل ... ويا حربا لسلام الشعوب
من الجهل يسقى بأكداره ... يضام لقلة أنصاره
ومن لم يغذ به لبه ... ويسقط من غير ذنب جناه
تغذى بحمأة أوضاره ... ذبيحا بسكين جزاره
ومن لم يسر تحت أعلامه ... فما لابن آدم ضل السبيل
طواه الدجى تحت أكساره ... فإقباله مثل إدباره
ومن لم يعز به نفسه ... وراح يقيه على غيره
رماه الهوان بأحجاره ... بدرهمه ، أو بديناره

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وبات يصول بأنيابه
كوحش ، ويسطو بأظفاره
غوى على حال إيساره
حتى على حال إعساره
فلا شر يمحو، بإقلاله
ولا خير يرجى بإكثاره
فتعسا له ! ! شقيت نفسه
بإثوائه وبإقتاره
ولو شاء عز بأراته
ولو شاء ساد بأفكاره

وعاش على أرضه ناعماً
بروض يموج بأزهاره
ولكنه مولع بالخصام
وإن بات يصلى لظى ناره
وفيه هوى عارم بالفساد
وإن راح يرفل فى عاره
هداه إلى رشده ربه
فلا يشعل النار فى داره

على الجندى

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

هوى الحمى لا يضمحل

كلف يحن وليس يألو
صبرا عن اللائين ولوا
إن يضمحل هوى المها
فهوى الحمى لا يضمحل
كلف يزيد ثباته
إن قيل : ذو كلف يزل
وجواك يا وطنى له
ببواطن الأحشاء شعل
ذكراك يا وطن الصبي
ذكراى أرحل أم أحل

عبد المحسن الكاظمى
شاعر العرب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من أعلام العرب ... ذو المروءات

للأستاذ جمال الدين الألوسي

قد يكون من نافلة القول وبديهات الفكر قولنا بضرورة إحياء ذكر الأعلام من أسلافنا ، لا سيما وأننا نعيش مرحلتنا الثورية ، وانطلاقتنا المتحررة إلى وحدتنا الكبرى بين المحيط والخليج ؛ فنحن بحاجة ماسة إلى انبعاث تاريخنا وتعريف ناشئتنا أمجاد أسلافهم ، ليرتسم أبناؤنا خطى أولئك العباقرة الذين كان لهم في ميادين الفكر والحضارة آثار خالدة ، ونحن في ذكر أخبارهم لا نتزيد ولا نختلق كما يفعل المتعصبون للعنصرية ، وإنما نسجل الواقع الواضح الذي لا ينكره إلا شعوبي حاقد أو عدو حاسد ، وما خلفوا للبشرية قائم في المكتبات موجود في الشرق والغرب وهو بالتالي وصل بين حاضرنا المتوثب وبين ماضينا المتألق ،

أحمد بن أبي دؤاد الإيادي :

هو ذو المروءات : أبو عبد الله ، ولي إمرة قاضي القضاة للمعتصم ، وابنه الواثق ، وجالس من قبلهما المأمون ، وكان من أعلام الفكر ، وأساطين المعرفة ، لم يسبق لأمير ولا لزعيم أن نال شهرة ، ونباهة ذكر ، وحرمة منزلة . مثل ما نال ابن أبي دؤاد ، ولم يشتهر علم من أعلام ذلك العصر - عصر النضج في العلم والفكر والأدب - شهرته اجتمعت له خصال كريمة غير العلم والفقه أبرزها سماحة النفس ، وطلاقة الكف ، والنجدة لكل ملهوف ممن يعرف ولا يعرف ، كان أحد السيوف العربية في الذب عن الوجود العربي ، وكان الحس العربي متغلغلا في نفسه ، يملك عليه مشاعره وأحاسيسه في مدينة تغلب على أهلها الأعاجم من فرس وترك وصقلب ، تلاقت أعدادها وتوحدت في نقطة تلاق ، هي دفع العرب عن مراكز القيادة وإبعادهم عن الرياسة في السياسة والجيش . وكان من خطتهم حمل الخلفاء إلى التشكيك برجالات العرب وعدم الثقة بهم في بلاط يموج بالدسائس ، ويزدحم بالحاقدين على العروبة وأهلها .

نصب القاضي ابن أبي دؤاد نفسه حامياً لمصالح العرب ذائداً عن رجالاتهم مبطلا كيد أعدائهم صمد للكائدين ، ووقف لهم بالمرصاد ، يفسد عليهم مؤامراتهم الدنيئة . كان موئلا للزعماء من أبناء العروبة ، يرد عنهم كل مناوئ ، ويتلافى ما يبدر من قادتهم من أخطاء ويتداركها عند الخليفة ، وربما تجاوز به الأمر إلى تعريض نفسه إلى غضب الخليفة حباً في حفظه مراكز القادة من أبناء العرب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فلق فى سبيل ذلك من العناء والمكروه ما لا يحصى ، وألب عليه خصوما ألداء عرفوا بشراسة الطبع ، وغلظة القلب ، وسوء الخلق ولكنه رغم تهديدهم ، ورغم مناوأتهم ؛ لم يني عن المضى فى خطته ، وبذل معروفه الدفاع عن بنى قومه والسعى لهم عند الخليفة ؛ حتى يحفظ لهم مراكزهم . يتجلى ذلك فى موقفه المجيد ضد (الإفشين) ، وانتصاره لأبى دلف العجلى ، وكان من زعماء شيبان ؛ بل كان زعيم العرب وقائد كتائبهم ، وكان الإفشين زعيم الجند التركى ، وكان يبغض العرب ويبغض دينهم ، ويكيد لأبى دلف ، ويدس عليه عند المعتصم حتى تغير له ، ولفق عليه اتهامات حصل بها الإفشين على موافقة الخليفة لمحاكمته محاكمة صورية تنتهى بقتل أبى دلف ، وسيق إلى البهو الكبير مكبلا بالحديد ، فهرع الناس إلى القاضى أحمد بن أبى دؤاد ينقلون إليه الخبر المفزع ؛ فخف لتوه إلى الإفشين ، وراح يستعطفه ، ويلين قلبه ليعفو عن زعيم العرب ، والإفشين لم يزدد إلا كبرا وصلفا ؛ فلما يئس منه انقلب مهدداً له قال : (إن رسول المعتصم إليك . يأمرك ألا تحدث بأبى دلف حدثاً ، وإن مسه سوء ، أو قتل فإنه قاتلك به ، والتفت للحاضرين ، وقال : اشهدوا أنى بلغته رسالة أمير المؤمنين ، والقاسم حى معافى) وذهب من فوره إلى المعتصم . فقال له : لقد بلغت رسالة عنك ما أرسلتنى بها ، ولكنى اجترأت فى إبلاغها لما فيها من مصلحة أمير المؤمنين ، وقص عليه الخبر ، فقال له المعتصم : نعم ما فعلت ، وأسبغ على القاسم أبى دلف نعمته ، وخلع عليه ، وكف يد الإفشين عنه ، وزجره أن يتعرض لسيد ربيعة بسوء . وأبو دلف هو الذى يقول فيه العكوك الشاعر :

إنما الدنيا أبو دلف
بين باديه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف
ولت الدنيا على أثره

وله موقف مشرف آخر فى الدفاع عن سيف آخر من سيوف العرب ذلك هو الأمير : خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى سيد ربيعة ، وعميد بكر ، وابن الفارس بطل آل شيبان وقاهر أرمينيا ، وفارس ، والتركستان (يزيد بن مزيد) أبرز قواد الرشيد ، وقاتل طريف الشارى الذى استشرى أمره واستفحل خطره ، حتى دانت له الجزيرة ، وهدد جيوش الخلافة وتغلب عليها والذى قالت فيه أخت طريف (لا يفلح الحديد إلا الحديد (١)) .

وتفصيل الخبر أن المعتصم حاول أن يتخلص من سياسة التوازن بين العرب والفرس واتبع طريقة جديدة غير السياسة التى اتبعها

(١) ورد المثل : لا يفل الحديد إلا الحديد .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الرشيد ومن سبقه من الخلفاء العباسيين فاعتمد على جيش من الأتراك - أخواله - وأسقط أسماء العرب والفرس من ديوان الجند، ولم يبق من قادة العرب إلا القليل على رأسهم البطل الشجاع: خالد بن يزيد الشيبانى، وكان سيداً جليلا، وكان يقود قبيلته، ومن حالفها فى المعامع التى تخوضها الخلافة ضد أعدائها، والذى يقول فيه الشاعر (أحمد المكى):

علم الناس خالد بن يزيد
كل حلم وكل بأس وجود
فترى الناس هيبة حين يبدو
من قيـــام وركع وسجود

وبإدخال المعتصم العنصر التركى واعتماده على الجيش الذى أعده منهم اختل التوازن السياسى، وضعفت كفة العرب لولا بقية من قوة كان يمثلها خالد بن يزيد وقبيلته؛ فأراد قادة الأتراك دفع هذا البطل وإبعاده عن البلاط العباسى وكانوا يكيدون له لدى المعتصم وأوغروا صدره على خالد فحلس المعتصم لعقوبته، وكان ابن أبى دؤاد يذود عن هذه القبيلة، وينافح قادتها، ويرى فيهم الكهف الذى إليه يلجأ العرب أمام طغيان الجيش التركى واستفحال أمره؛ فخف لنصرة القائد العربى ودافع عنه، واستعطف المعتصم؛ فلم يجبه، وألح فى الرجاء فلم يلن الخليفة. فلما انعقد مجلس الخليفة لمحاكمة سيد بنى شيبان دخل القاضى ابن أبى دؤاد، وجلس فى منزلة دون منزلته التى اعتادها؛ فقال له الخليفة: يا أبا عبد الله جلست فى غير مجلسك، فقال: ما ينبغى لى أن أجلس إلا دون مجلس هذا فقال الخليفة: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعى موضع من يشفع فى رجل فيشفع، قال: فارجع إلى مجلسك، قال: مشفعاً أو غير مشفع؟ قال: بل مشفعا؛ فارتفع إلى مجلسه ثم قال: إن الناس لا يعلمون رضى أمير المؤمنين عن خالد، فأمر المعتصم بالخلع عليه؛ فقال: يا أمير المؤمنين، قد استحق هو وأصحابه أعطيات ستة أشهر فإن أمرت لهم بها فى هذا الوقت. قامت مقام الصلة، فقال: قد أمرت بها، فخرج خالد، وعليه الخلع، والمال بين يديه، فصاح به رجل من العرب: الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب، فقال له خالد: اسكت سيد العرب - والله - أحمد بن أبى دؤاد روى الحافظ الخطيب البغدادى فى تاريخه قال: كان يقال: أكرم من كان فى دولة بنى العباس البرامكة، وابن أبى دؤاد.

وإنه لحرى بالعلماء والمستشارين الذين يتصلون بالحكام أن يسيروا سيرة أحمد بن أبى دؤاد ويتخذوا من قربهم ودنوا منزلتهم وسيلة لرفع مظلمة أو إحقاق حق؟

جمال الدين الألوسى
عضو جمعية المؤلفين والكتاب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلى أي مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

— ٤ —

انتهيت في المقال السابق إلى بيان مدى تطور الأحكام الشرعية التي لها مساس بالعرف والعادات ؛ وقبل أن تنتقل إلى الموضوع الثاني وهو المصالح المرسلة أحب أن أعلق على اعتبار العرف والعادة في نظر الشرع بعبارة جامعة لابن القيم الجوزية وهي « إذا جاء رجل من غير إقليمك يستفتيك فلا تجره على عرف بلدك ، وسله عن عرف بلده فأجره عليه ، وأفته به دون عرف بلدك والمذكور في كتبك ، ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعاداتهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل » اهـ .

وطبعا هذا إذا لم يكن في المسألة المستفتى عنها نص يعتمد عليه شرعا .

وقد بينا في مقالنا السابق آراء الفقهاء في تخصيص النص بالعرف .

واليوم نعرض الموضوع من أخطر أبواب استنباط الأحكام الشرعية ألا وهو موضوع (المصالح المرسلة) وسيتناول بحثنا فيه ما يأتي :

تعريف المصالح المرسلة ـ موقف الفقهاء إزاء الاحتجاج بها ـ هل يجوز تخصيص النص بها أو نسخه ؟

وقبل الشروع في هذا البحث لا بد من مقدمة لا يمكن فهم الموضوع فهما سليما إلا بذكرها .

الشريعة الإسلامية لأنها خاتمة الشرائع الإلهية جاءت كافلة لمصالح البشر على اختلاف الأعصار والأماكن وذلك لأن من أصولها درء المفاسد وجلب المصالح ، والشارع لم يعتبر كل مصلحة ، بل ألغى بعض المصالح لأن الشر المقارن لها أعظم من الخير المرجو منها .

والمصالح لها مراتب ثلاث :

١ ـ ضرورات : وهي ما لا يمكن الاستغناء عنها وهي ترجع إلى المحافظة على خمسة أمور ، وهي : الدين والنفس والعقل والنسل والمال .

٢ ـ حاجات ، وهي ما تدعو الحاجة إليها ويمكن الاستغناء عنها بمشقة ، وتعتبر مكملة للضروريات ، والتشريع ـ بصددها ـ يرجع إلى رفع الحرج عن الناس ، وتخفيف مشاق التكليف عنهم .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

٣ ــ تحسينات ، وهى مالا يرجع إلى ضرورة وحاجة ، ولكن تقع موقع التحسين والتزيين ، والتشريع ـ بصددها ـ يراعيها لما فيها من الترفيه عن الناس مالم تعارض ضرورة أو حاجة ، وهى تعتبر ـ فى الجملة ـ متممة للحاجات ، وأكثر مايتصل بهذا اللون من التشريع يعود إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم التى ينبغى أن يتصف بها المسلم.

ثم أن المصالح ـ بالنظر إلى اعتبار الشارع لها ـ تنقسم ـ فى الجملة ـ إلى أربعة أقسام .

القسم الأول : مصالح اعتبرها الشارع وأدار الأحكام على مقتضاها ، ويسمى هذا القسم ـ عند الأصوليين ـ بالوصف المناسب المؤثر ، وعرفوه بأنه الوصف الذى رتب الشارع حكما على وفقه ، وثبت بالنص أو الإجماع اعتبار هذا الوصف علة للحكم الذى رتب عليه ، كقوله تعالى ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن، فأنت ترى أن القرآن صرح بأن الأذى هو علة تحريم قربان الحائض ، ولا يخفى عليك مناسبة هذا الوصف لهذا الحكم .

ومن ذلك قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه [1] ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق » .

فالله ــ سبحانه ــ صرح فى هذه الآية بأحكام وبين وجه تشريعه لهذه الأحكام .

فقد حرم الله ـ جل شأنه ـ دخول بيوت النبى صلوات الله وسلامه عليه إلا بإذنه ، كما أوجب الخروج بعد تناول الطعام ، وحرم المكث لمجرد الاستئناس ، وعلل الله ذلك بقوله « إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم » ، فإيذاء النبى وصف موجب لتحريم كل ما من شأنه إيذاؤه صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم حينما سئل عن الهرة تشرب من الإناء « إنها من الطوافين عليكم والطوافات » فهذا الوصف اعتبره النبى صلى الله عليه وسلم موجبا لطهارة سؤر الهرة [2] .

ويلحق بهذا اللون من الأوصاف تعليق الشارع الحكم على مشتق كقوله تعالى « والزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » فإن الجلد معلل بوصف هو الزنى وهو وصف مناسب للعقوبة .

وكقوله صلى الله عليه وسلم « ليس للقاتل ميراث » فإن القتل وصف مناسب للحرمان من الميراث ، لكونه تعجل أمرا قبل أوانه فناسب أن يعاقب بحرمانه .

---

(١) أى غير منتظرين نضجه .

(٢) السؤر : مايبقى بعد شرب الإنسان أو الحيوان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقد يكون الوصف معتبراً من الشارع وثبت اعتباره بالإجماع ، كالصغر ، فإنه قد قام الإجماع على اعتباره علة للولاية فى الأموال ، ومثله الجنون والعته .

وهذا اللون من الأوصاف المشتملة على المصالح أجمع العلماء على اعتبارها فى استنباط الأحكام الشرعية ، حتى أولئك الذين أنكروا القياس ، وفروا من تسميته قياساً إلى أسماء أخرى ، ولا يعنينا هذا فى بحثنا ولكن المهم هو ما قررناه من أن هذا اللون من الأوصاف من أهم مصادر معرفة الأحكام الشرعية ، ومما أجمع على اعتباره .

القسم الثانى : ويعرف عن الأصوليين والفقهاء بالوصف المناسب الملائم ، وهو الوصف المناسب الذى رتب الشارع حكما على وفقه ، ولم يثبت بالنص أو الإجماع اعتباره بعينه علة لنفس الحكم المترتب عليه ولكن ثبت بالنص أو الإجماع اعتبار هذا الوصف علة لحكم آخر من جنس هذا الحكم أو اعتبار وصف آخر من جنس هذا الوصف علة لهذا الحكم بعينه أو اعتبار وصف من جنسه علة لحكم آخر من جنس هذا الحكم .

ولتوضيح هذا الوصف وهذا التعريف أضرب لك الأمثال ليتضح لك هذا اللون وطبعاً متنكروا القياس لا يقرون هذا اللون من الاستنباط للأحكام .

مثال أول لتوضيح هذا التعريف .

الصغر : اعتبره الشارع مناسباً لثبوت الولاية فى الأموال وهذا ثابت بالإجماع وقد ورد عن الشارع أنه جعل للأب ولاية تزويج ابنته الصغيرة البكر ، ولم يرد عن الشارع نص كما لم يرد إجماع أن أحد هذين الوصفين علة لهذا الحكم وكلا الوصفين مناسب للحكم ولكن الاجماع على ثبوت الولاية فى الأموال للصغر ، وهما من جنس واحد فكان الصغر أنسب لثبوت ولاية التزويج من البكارة وأكثر ملاءمة له ، وهذا ما ذهب إليه الحنفية ، وذهب الشافعية إلى اعتبار البكارة هى علة الولاية فى التزويج لأن البكارة مظنة الحياء وعدم معرفة أحوال الرجال ، ولكل وجهة ، كما ترى .

مثال ثان : قياس القتل بمثقل على القتل بمحدد فى وجوب القصاص فقد ثبت بالنص وجوب القصاص فى القتل بمحدد لعلة هى إزهاق نفس بريئة عمداً وعدواناً وهذه العلة نفسها موجودة فى القتل بمثقل .

وهذا واضح ، وخلاف أبى حنيفة رضى الله عنه فى هذه المسألة ليس لعدم وجود هذه العلة الموجبة للقصاص ، ولكن - كما نقل عنه أن المثقل لم يوضع - بطبعه - للقتل ، فكان هذا القدر شبهة يدرأ بها القصاص ولكن هل نسلم هذا أليست الصخرة الكبيرة من شأنها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

القتل ؟ ثم ألم يرضح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس اليهودية التى رضخت رأس أخرى؟

مثال ثالث : ثبت عن الشارع جواز جمع الصلاتين فى الإقامة حالة المطر ؛ ولم يرد نص أو إجماع أن المطر علة للجمع ؛ وثبت أيضاً جواز الجمع فى السفر ؛ والعلة المظنونة فى كل هو أن كلا من المطر والسفر مظنة المشقة فظنة المشقة إذن تصلح للتعليل لإدارة الأحكام الشرعية المشقة عليها .

هذا والأمثلة كثيرة ؛ وهذا القسم من الأوصاف المناسبة يفتح لنا آفاقا واسعة رحبة لتطور الأحكام وسعة فطاق الفقه الإســـلامى واستيعابه لألوان كثيرة من الحادثات التى ليس فيها نص ولا إجماع .

القسم الثالث: الوصف المناسب الملغى وهو الوصف الذى نظن ـ نحن ـ أن بناء الحكم عليه فيه تحقيق مصلحة من جلب نفع ودفع ضرر ولكن الشارع ألغى هذا الوصف وأبطل صلاحيته لهذا الحكم أو الحكم آخر من جنسه وأمثلة هذا الوصف كثيرة كقول بعض الناس : إن الابن والبنت يتساويان فى القرابة من الوالدين فوجب أن يتساويا فى الميراث .

وأن المرأة والرجل يتساويان فى الآدمية فوجب أن يتساويا فى الحقوق والواجبات وكل التشريعات .

وأن التبنى لغير أولاد الإنسان فيه رفع معنويات الولد وقضاء على التشرد ـ كما قيل فوجب أن يباح .

وإن الفقر أو الخوف منه صالح لأن يكون علة لتحديد النسل بعد أن ألغى الله هذا الوصف فى حكم من جنسه وهو قتل الأولاد « خشية إملاق » .

وأمثلة هذا القسم كثيرة ؛ وكأن كل الآراء المنحرفة التى تنادى بعدم التقيد بحكم الله تتبع هذا اللون من الأوصاف التى ألغاها الشارع ولم يقم وزنا لها ولا لما فيها من جلب نفع أو دفع ضر ؛ لأن ما تنطوى عليه من شر أكثر وأفدح .

وهذا الوصف لا يصلح أن يكون علة التشريع ما لأنه حكم الهوى والغرض وإبطال للشريعة من أساسها ؛ فلا يجوز أن يعول عليه .

القسم الرابع :

الوصف المناسب المرسل : وهو الوصف المناسب لأن يدار عليه حكم من الأحكام ولكن الشارع لم يرتب حكما على وفقه ولم يدل دليل على اعتباره أو إلغائه ؟ فهو مناسب أى يحقق مصلحة عامة ، ومرسل أى لم يعتبره الشارع ولم يلغه ؛ وذلك كضرب نقود للتعامل وتدوين الدواوين وتسجيل عقود النكاح والملكية .

وهذا القسم هو ما نريد أن نكشف اللثام عنه ؛ فى العدد الآتى إن شاء الله تعالى ؟

بدر المتولى عبد الباسط

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

شريعة الصيام بين المسلمين وغيرهم

للأستاذ علي الخطيب

فصل القرآن الكريم أحكام الصيام تفصيلا أحاط بخطوطه العامة فأبرزها. وتناول شرعته فجلاها، حتى استوت وضوحا لدى صغير المسلمين وكبيرهم، وعالمهم وجاهلهم، فليس بين من أدرك التمييز منهم من يجهل بدء الصوم ونهايته، أو فضله وغايته.

ففي بيان فرضه، واحتمال البشرية له، يقول تعالى مخاطباً المؤمنين برسالة القرآن: «كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم».

ويبين القرآن وقت الصوم، ويأمر به، فيقول: «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه».

وإذ ينتهي القرآن من بيان فرضه، وتعيين وقته، يأخذ في بيان كيفيته سالكا في ذلك طريق صريح اللفظ ومفهومه على السواء، فبين ما حل بليل من جماع، وطعام وشراب ثم عقب بتحريم ذلك نهاراً إلى الليل فقال تعالى:

«أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم»، ومفهوم الآية حرمة الرفث بالنهار في رمضان. ثم يقول: «... وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ...».

ولا يجوز لمسلم أن يحتاط لرمضان بصوم يوم قبله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صام يوم الشك فقد عصا أبا القاسم، كما لا يجوز صيام يوم العيد عقبه، فقد حرمت الشريعة صيام يوم العيد، وهكذا نجد رمضان، شهر الصيام، قد صار في حصن حصين، لا تهب عليه ريح الفتنة، أو تتوشه أغراض الهوى، فلا يفتى فيه بزيادة، ولا يرخص فيه بنقص، وتلك ميزة التشريع في الإسلام، وإنه ليحق أن نتساءل - في معرض الصوم - عن سر إحكام التشريع فيه ...؟ ولماذا عني القرآن الكريم بالتفصيل في أمره؟ ولماذا أوحى إلى الرسول بتحريم صيام يوم الشك، فما ينطق محمد صلى الله عليه وسلم عن هوى.

هل كان ذلك لأن الصيام أفضل العبادات؟!

إن أفضل العبادات الصلاة؛ فهي أدوم طريق إلى الله، تلزم المرء ويلازمها حتى يلقى الله. فهي خير عبادة، وأعظم شعيرة.

فهل مرجع ذلك أن يكون الصيام شرعة في الإسلام وحده ...؟

إن الصيام فرض على السابقين. وليس في الإسلام وحده، والقرآن صريح في ذلك.

إنما في الأمر سر يعرفه التاريخ، وإنه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ليسرد علينا عجبا من أمر الصيام بين أهل الشريعتين السالفتين على الإسلام .

وفى هذا التاريخ الجواب عن سر القرآن :

صيام اليهود :

يقول اليهود : إن الله فرض عليهم صيام يوم واحد هو : يوم الكبور ، ويسمونه بيوم الغفران أيضا ، كما يسمى بعاشوراء اليهود ، ويقع فى العاشر من شهر « تشرى » ويدعون أنه لا فرض سواه ، وما عداه إنما هو نفل يتبع الرغبة ، ويناط بالاختيار .

ونحن نقول فى وضوح :

إن نصوص العهد المتداولة لا تعطى نصا يقصر « الفرضية » على يوم الكبور ، كما أن ماورد فى ذلك العهد بسفر اللاويين (١٦ - ٢٩ إلى ٣٤) ويعتمدون عليه كدليل على فرض الكبور - لا يحمل نصا صريحا بالصيام مناطاً به فرض يوم واحد ، ومع هذا فلننظر مصير يوم الغفران هذا بين يدى اليهود !

هل حافظوا عليه أم ضيعوه ... ؟ !

لقد أحدث اليهود فيه « استبدالا » كما أحدثوا به « إسقاطا » .

فأما الاستبدال ، فقد وقع باشتراطهم أن يصوموا « الكبور » فى غير جمعة أو أحد أو ثلاثاء ، فإذا وقع العاشر من تشرى واحدا من هـــذه الأيام استبدل باثنين أو أربعاء أو غير ذلك . وليس فى الأسفار المنسوبة لموسى عليه السلام ما يجيز لهم ذلك .

وليس الاستبدال كل ما تعرض له الكبور فللنسىء معه شأن آخر ، ذلك أن اليهود يعتمدون التأريخ بالشهور القمرية ، غير أنهم يزيدون شهرا كل ثلاث سنوات قمرية ، يسمونه « أدار الثانى » ، فالسنة الثالثة كبيسة دائما بنسيئها ، حتى لتبلغ نحو أربعة وثمانين وثلاثمائة يوم ، وذلك حرصا منهم على أن يقع رأس سنتهم دائما بين شهرى : سبتمبر وأكتوبر الشمسيين ، وبسبب هذا النسىء استحال أن تتقدم سنتهم فتقع فى أغسطس ، أو تتأخر فتقع فى نوفمبر ، وليس هذا الذى من تعاليم العهد ، فالعهد - حتى المتداول - يبرأ من تلك الفعلة ، والله منها برىء براءة موسى عليه السلام ، وقد ترتب على هذا النسىء أمران فى « الكبور » :

(ا) أن يقع يوم الكبور دائما فى غير يومه من السنة القمرية .

(ب) أن يسقط يوم الكبور كلية بفضل ما يتجمع على مدى السنين من زيادة هذا الشهر ، وبعملية حسابية بسيطة يمكننا أن ندرك أن كل ست وثلاثين سنة قمرية عند اليهود هى فى الواقع سبع وثلاثين سنة ، وتلك السنة الزائدة يسقط فيها الكبور . وهكذا كان هذا النسىء زيادة فى الكفر بما يضيع من طاعة ، ويسقط من فريضة ، ويضل عن صواب ، وحجتهم فيه داحضة عند ربهم .

فلينظر المسلم إلى ما فعلت يهود ، ولينظر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بعد فى كتاب عقيدته ، وليتصفح آيات الصيام فى القرآن ليدرك من أسرار التفصيل والبيان إعجاز القرآن فى صيانة العبادة ، وحفظها إلى يوم الدين ، فقد برئت الشهور الإسلامية من النسىء ، وبرىء رمضان من السقوط والاستبدال ، بفضل تلك الآيات البينات التى أحكمت أمره ، وفصلت شأنه ، وجعلته هدى للناس لعلهم يتقون .

صيام المسيحيين :

ليس من شك فى أن الله فرض الصيام على أمة المسيح . ولا جدال بين أقدم طائفتين مسيحيتين فى ذلك ، والقرآن شاهد صدق فى القضية ، فالنصارى هم أصحاب الرسالة السالفة للإسلام مباشرة ، وقضية القرآن فى فرض الصيام عليهم واضحة : « كما كتب على الذين من قبلكم » وإذا خرج غير المسيحيين من السابقين على الإسلام من هذا الحكم بتأويل ، فإن حرفية النص قاصرة على المسيحيين فى كل تفسير .

فما أمر الصيام فيهم . . ؟!

وإذا كان أمر الصيام قد ذكره القرآن للمسلمين جملة وتفصيلا ، فهل الصيام فى المسيحية مرده الإنجيل أو الأناجيل المتداولة ؟ وهل هى (صاحبة) فرضه ، ومقررة أمره ، والهادية لأحكامه ، والمشيرة بأيامه ، والقاضية بوقت الكف فيه ؟ والمانعة مطعومه ومشروبه . ؟!

الجواب فى وضوح : لا

إن الطائفتين المسيحيتين : الكاثوليكية . والأرثوذكسية كلتاهما رفعاً ، الإنجيل ، من طريق تشريع الصيام ، واعتباره ، تشريعاً كنسيا ، تحده الكنيسة بالزمان والمكان وتختار كيفيته . وتشهر ببدئه ونهايته ، فهى « بأمره » أدرى ، و « بمصلحة الأفراد » أرعى وإليها المرجع والمآل فى أحكام الصيام .

ولما كانتا كلتاهما تستقل بالتشريع اختلفتا فى وقت الكف اليومى .

فقررت الكاثوليكية وقت الكف ابتداء من منتصف الليل إلى منتصف النهار .

وتركت الأرثوذكسية وقت الكف بيد الراعى أبى الاعتراف الذى يدرك حدود الانقطاع ، ويعلم مصلحة الصائم فيقرر له الوقت الصالح له من ليل أو نهار .

وختمت البروتستنتية الجولة بإنكار فرضية الصيام ، مدفوعة فى ذلك بفلسفتها الكهنوتية فى محاربة البابوية وأوامر الكنيسة فأسقطت بدورها فرض الصوم عن الأتباع وناطت أمره بالرغبة وحدها وتركت وقت الكف بيد الأفراد يصومون متى أطاقوه فإن ضاقوا به تركوه وتحمس الأتباع البروتستنت من غير رجال الدين أو منهم فانتصروا لعقيدتهم بنصوص لمن بعد المسيح تدل لرأيهم وتسخر بصفة خاصة من الرهبنة والصيام عن الحيوان ونتاجه . ومن أمثلة ذلك قول مفسوب لبولس يقول فيه :

مرائين ينطقون بالكذب ، وضمائرهم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مكوية، ويمنعون عن الزواج ، وعن أكل أطعمة خلقها الله ليتناولها بشكر كل من آمن وعرف الحق .

وينسب له أيضا هذا القول :

« فلا يحكم عليكم أحد فى المأكول أو المشروب ، أو من قبيل عيد أو رأس شهر أو سبوت .

ولقد اعتبرت الفرق الثلاث « الاتصال الجنسى » غير مفسد للصوم ، وهذا العمل منهم ليس تشريعا إنجيليا أيضا ، ولا يرجع إلى العهد القديم ، وإلا فصيام موسى وعيسى عليهما السلام وهما ورادان بالعهدين لا جنس فيهما على الإطلاق .

فموسى صام أربعين يوما بالجبل قضاها منفردا عن أهله فى لقاء ربه يتلقى فيها ألواح التوراة وعيسى عليه السلام صام أربعين يوما كذلك ، وكان عليه السلام حصورا .

ولئن اعتبر (العدد) ليس بفرض عليهم فما من شك أن (كيفية صيام الرسول) يجب أن تؤخذ بالاعتبار ، وأن تكون هى النهج المعمول به لأنه قدوة التشريع وتلك الكيفية كانت امتناعا عن « المأكل والمشرب والمنكح قد يقال : إن عيسى عليه السلام كان حصورا من قبل الصيام ومن بعده ، فلا يعتبر الامتناع عن الجنس قائما من أجل الصيام ؟ وبالتالى ، فالجنس لا علاقة له بالصيام ؟ .

نقول : إن صيام موسى عليه السلام من العبادات التى أقرها المسيح، ولم يلغ المسيح صلوات الله عليه كيفية صيام موسى عليه السلام ... وإلا ... فأين الدليل ؟ وبخاصة والعهد القديم ـ معتمد عليه فى التعليم فلم تهمله أى الكنائس وهل موسى عليه السلام لم يصم فى حياته غير صيام الجبل . ؟ .

على أن بدهية الخلوص للروح وحدها وقت الصيام إنما يتم بالكف عن لذات الجسد جميعا. وتلك ميزة الصيام، ولا صيام بدونها والحجة قائمة ، والدليل موجود ، فلم المروق ! . . ؟

وإنه ليحق لنا فى ختام هذا البحث أن نتساءل.

هل حفظ أهل الكتاب فرض الصيام ؟ أو حفظوا أحكامه ... ؟ . أو حفظوا أوقاته ؟ . أو احترموا فيه مسلك أنبيائهم ؟ .

اللهم ... لا .

لكن الإسلام ، خاتم الرسالات حفظ الأحكام والحدود ، وقام أتباعه على السمع والطاعة ، يستقبلون رمضان، فيؤدون الصيام فيه مستبشرين ، محافظين فيه على عهد الله وأحكامه ، حتى صار ذخرا لهم لجلب رضوان الله ورحمته ، فمن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » .

على الخطيب
مجمع البحوث الاسلامية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من ذكريات رمضان

معركة عين جالوت

للأستاذ محمود محمد شبكه

من المعارك الحربية الهامة فى التاريخ معركة عين جالوت لما كان لها من آثار خالدة فى حياة الإسلام والمسلمين . وذلك أن التتار بقيادة هولاكو جاءوا من أواسط آسيا ، وواصلوا زحفهم ، يخربون ويدمرون ويضربون مراكز العلم والأدب، واستطاعوا فى فترة وجيزة أن يسيطروا على أغلب أقاليم العالم الإسلامى ، واستعملوا كل أساليب التعذيب والقسوة ، وسفكوا الدماء ، وقتلوا الأبرياء وفتحوا بغداد ، وكان لسقوطها فى أيديهم وقع أليم فى نفوس المسلمين ، كما قتلوا الخليفة المعتصم وطائفة من آل البيت العباسى وكان فى مقدور الخليفة أن يرد هذا الخطر الداهم ، والشر الزاحف ، ولكن جو التفكك والانحلال الذى كان يسيطر على الخلافة العباسية فى ذلك الوقت كان يبشر بهذا المصير المؤلم ، واستولى التتار على بلاد الروم وديار بكر وربيعة ، وأخضعوا بلاد الشام كلها ، وقد تركت هذه الانتصارات المتتابعة أثرا عميقا فى نفوس الناس واعتقدوا أن التتار قوم لا يغلبون ، وأنه لن تستطيع أمة أن تقف زحفهم ، وتعترض طريقهم ، وكان طبيعيا ، أن يتجه التتار بعد ذلك إلى مصر وهى آخر معقل للإسلام فى الشرق وكانت مصر فى ذلك الوقت تحت سلطان المماليك ، يحكمها سيف الدين ، وما لبث هذا السلطان أن تلقى من هولاكو الرسالة التالية تحمل كل معانى التهديد والاستخفاف :

« من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظم .

باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء .

يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الأقليم يتمتعون بأنعامه ، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أننا جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من أحل عليه غضبه فسلموا إلينا أموركم تسلموا قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا وقد عرفتم أننا خربنا البلاد وقتلنا العباد فلكم منا الهرب ولنا خلفكم الطلب فما لكم من سيوفنا خلاص : وخيولنا سوابق، وسيوفنا قواطع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ومن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا وأوامرنا أطعتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، فقد أعذر من أنذر وقد ، ثبت عندكم أننا كفرة ، وثبت عندنا أنكم الفجرة فأسرعوا إلينا بالجواب قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترميكم بشرارها فلا يبقى لكم جاه ولا عز ولا يعصمكم منا جبل ولا حزن فما بقى لنا مقصد سواكم والسلام علينا وعليكم وعلى من اتبع الهدى ، وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى [1] » .

هذه هى رسالة هولاكو وقد حرصنا على إثباتها كاملة لندرك منها طبيعة هؤلاء القوم ومقدار ما فيهم من توحش وغلظة وغرور واستهتار .

تسلم قطز رسالة هولاكو ، وجمع الأمراء واستشارهم ، وقتل الرسل ، وعلق رؤوسهم على باب زويلة ، ولقد أبدى بعض الأمراء تكاسلا وتثاقلا حينما جد الجد ، ودنت ساعة الجهاد ، فما كان من قطز إلا أن قال لهم فى سخرية لاذعة :

(يا أمراء المسلمين : لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين [1] » . وقد كان لهذه الكلمات أثرها البالغ فى نفوس الأمراء ، فقد أثارت فيهم الحمية وملأت نفوسهم بالقوة ، ونزعت منها كل عوامل الجبن والتردد وانتظموا يداً واحدة تحت إمرة قائدهم .

أما هولاكو فقد جاءته الأخبار وهو فى حلب بوفاة (خان التتار) الأعظم فاضطر إلى العودة مسرعا إلى قلب آسيا ليشارك فى اختيار الرئيس الجديد تاركا جيشه فى الشام إلى قائده (كتبغا) فى عشرة آلاف مقاتل . تقدم الأمير بيبرس البندقدارى يقود طلائع المصريين قاصداً فلسطين بينما كانت حامية صغيرة من التتار تحتل غزة بقيادة (بايدر) فهزمها بيبرس وطاردها حتى شاطىء نهر العاصى ، وقد سمح الفرنج فى عكا للمصريين بأن يعبروا أرضهم ويموّنوا أنفسهم منها يقول المقريزى :

« ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة ، وأقام بها يوما ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج فخرجوا إليه بتقادم ، وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم ، وأخلع عليهم ، واستحلفهم ألا يكونوا إلا له ولا عليه ، وأقسم لهم أنه متى تبعه فارس أو راجل يريد أذى عسكر

(١) صبح الأعشى جـ ٨ صـ ٩٣ ـ ٩٤ .

(١) السلوك للمقريزى جـ ١ ق ٢ صـ ٤٢٩ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلتقى التتر [1] » .

وحينما وافت الأنباء قائد التتار (كتبغا) بهزيمة (بايدر) ثارت ثائرته ، وتملكه الغضب وعزم على الانتقام معتزاً بقوته وكثرة جيشه .

وا إسلاماه :

تجمع المصريون عند أسوار عكا ، ثم اتجهوا نحو نهر الأردن ، وتقدم (كتبغا) يقود جيشه ومعه بعض الفرقات الأرمنية والتقى الجمعان عند (عين جالوت) [2] حيث دارت المعركة حامية ، واستحر القتال ، واستبسل المصريون ، واندفعوا نحو أعدائهم يعملون فيهم سيوفهم ضرباً وتقتيلا وأظهروا من ضروب الشجاعة والإقدام ، ما يجل عن الوصف ، ولقد حدث أثناء المعركة أن اضطرب جناح من أجنحة المصريين وانتقض طارف منه ، فألقى الملك المظفر قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته قائلا : (وا إسلاماه) فكان لهذا الصوت المدوى فى أرجاء المعركة صداه العميق فى نفوس المصريين ، إذ ألهب شعورهم ، وأذكى فيهم روح الحماس والتضحية ، وذكرهم بما ينبغى عليهم نحو دينهم ، فحملوا حملة صادقة على عدوهم أسفرت بعدها المعركة عن هزيمة التتار لأول مرة فى حياتهم ، وقد استطاع المصريون أن ينتقموا منهم وينكلوا بهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً قارب النصف [1] وتعلق من سلم برءوس الجبال فتبعهم المسلمون وأبادوهم ، وطاردوا من فر منهم إلى أطراف البلاد الشرقية ، وقد وقع قائد التتار (كتبغا) أسيراً بعد أن قاتل بشجاعة منقطعة النظير ، وقد قال له قطز حينما مثل بين يديه : (أيها الرجل الناكث للعهد ، ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة ، وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة ، وهدمت البيوتات العريقة بالأقوال الزائفة المزورة ، قد وقعت أخيراً فى الشرك) [2] فرد عليه القائد التترى ردا فيه القوة والجرأة وعدم المبالاة بالمصير المنتظر : (إنى إذا قتلت على يدك فإنى أعلم أن ذلك من الله لا منك فلا تنخدع بهذه المصادفة العاجلة ولا بهذا الغرور العابر فإنه حين يبلغ هولاكو خان نبأ وفاتى سوف يغلى غضبه وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من أذربيجان حتى ديار مصر ، إن لهولاكو خان ثلاثمائة ألف فارس مثل كتبغا ، فافرض أنه نقص واحد منهم. فقال له قطز: لا تفخر

(١) السلوك للمقريزى جـ ١ ق ٢ صـ ٣٢٠ .
(٢) بلدة بين نابلس وبيسان من أعمال فلسطين

(١) للمقريزى الخطط جـ ٢ صـ ٢٣٨ .
(٢) أبو الفدا جـ ٣ صـ ٢١٤ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلى هذا الحد بفرسان توران فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة) .

وكانت آخر صيحة (لكتبغا) أن سب سلاطين المماليك الذين ترفعهم الصدف ، ويتخذون من قتل سادتهم وسيلة للوصول إلى الملك ثم أشاد بوفاء بنى جنسه ، ومدى احترامهم للقانون فقال : إنى كنت عبداً للملك ما حييت ، ولست ماكراً وغادراً ، وقاتلا لمولاه ، بادر بالقضاء على بأسرع ما يمكن حتى لا أسمع تأنيبك ، فأصدر قطز على الفور أمره فاحتزت رأسه ، وطيف بها فى البلاد (١) .

ثم واصل قطز سيره بالجيش حتى دخل دمشق دخول الفاتح المنتصر ، وبهذا النصر دخلت الإمارات فى سوريا من الفرات حتى حدود مصر تحت حكم المماليك .

وتعتبر موقعة عين جالوت من المواقع الحاسمة فى التاريخ لأنها أول هزيمة لهؤلاء البرابرة المتوحشين ، ثم إنها أزالت الخرافة التى استقرت فى أذهان الناس ، وجعلتهم يعتقدون أن التتار قوم لا يغلبون ، ووقفت سداً منيعا دون تقدم التتار إلى مصر ، لأنهم لو انتصروا فى هذه المعركة لكان القضاء على الإسلام حتما مقضيا ولتغير مجرى التاريخ وبخاصة أن الصليبيين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتحينون الفرص للتحالف مع التتار ليكونوا جبهة واحدة ضد المسلمين ، وقد استحقت مصر بعد هذه المعركة زعامة العالم الإسلامى عن جدارة ! وأصبح العالم ينظر إليها نظرات الإكبار والإجلال إذ أنها الدولة الوحيدة التى استطاعت أن تذود عن الإسلام ، وتدفع عنه شر الصليبيين وخطر التتار ، مما يدل على أصالة هذا الشعب وعراقته فى الكفاح والنضال وتعشقه للحرية وبذله النفس والنفيس فى سبيلها ، وتضحيته بالأموال والأرواح فى سبيل عزته وكرامته بل وفى سبيل عزة العرب قاطبة والأمة الإسلامية جمعاء .

وقد كانت هذه المعركة الموفقة فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ستمائة وثمان وخمسين وكما نصر الله فى هذا الشهر العظيم المسلمين الأولين فى غزوة بدر وأثابهم فيه فتح مكة أنعم على المصريين بالفوز والظفر فى معركة عين جالوت .

(ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

محمود محمد شبكة

مدرس بالمحلة الكبرى الثانوية للبنين

---

(١) الطفولة فى التاريخ للدكتور فؤاد الصياد ص ٢٠٧

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فجر الفكر الإسلامي في مصر

للأستاذ عبد الجليل شلبي

— ٢ —

تأخرت الحركة الفكرية في مصر عن أختيها في الشام والعراق ـ ففي الوقت الذي كانت العلوم العربية فيه نمت وقاربت الازدهار في العراق كانت الحركة الفكرية في مصر لا تزال في بدايتها ـ كانت الفسطاط بؤرة هذه الحركة وقد انتقل منها شعاع ضئيل إلى ما حولها ـ ولم يظهر شيء منه في أطراف الريف ـ زد على ذلك أن حركة الفكر في العراق تنوعت فلم تقف عند حد الفقه والتشريع ، وإنما ظهر فيها النحو والتاريخ والأدب وظهرت مبادىء الجدل في علم الكلام وغيره .

وكانت الشام أقل من هذا ولكنها كانت أسبق من مصر كما كانت الحركة فيها أيضاً أكثر نمواً .

وفي الأدب بصفة خاصة تأخرت مصر عنهما كثيراً .

وفي تاريخ مصر نجد شيئاً يدعو إلى الدهشة أو هو هكذا في ظاهره . ذلك أن مصر أقبلت على الإسلام ، وأسرع شعبها إلى الدخول فيه بما لم يحدث مثله في العراق ولا في الشام ـ فمن ناحية تأخر هذان الإقليمان ولم يسرعا إلى الإسلام أول ما فتحت بلادهما ومن ناحية أخرى ظل عدد كبير من أبناء البلاد على دينه المسيحي ، وكثيرون من أبناء الفرس أسلموا ظاهراً وأبطنوا عقيدتهم التي كانوا عليها ـ ولأمر ما ظهرت الزندقة بقوة في العراق دون غيره ، ونظمت فيه حركة سرية للموالي ، كان عمر بن الخطاب ضحيتها ، وفي العصر العباسي كان مظهر المجون والخروج على وقار الدين ، ولم يحدث شيء من هذا في مصر ـ ومع هذا تأخرت حركة الفكر فيها .

لا ينبغي في مقام التعليل لهذه الظاهرة ، أن نعلق أهمية كبيرة على سبق الفتح ـ فقد فتح الإقليمان قبل مصر بأقل من عشرة أعوام ولكن سبقاها بأكثر من ذلك بكثير في حركة الفكر .

وأهم سبب دعا إلى ذلك في نظري هو مسألة اللغة ـ فقد كانت اللغة العربية أشد غرابة على المصريين مما كانت على الآخرين .

أما الشام فكانت تشارك مصر حقاً في صفة الحكم ، واللغة الرسمية في الإقليمين هي اللغة اليونانية حتى في العهد الروماني كما كانت توجد الرومانية أيضاً ، ولكن الشام كانت تتوزع بأرضها لغات سامية هنا وهناك : السريانية والعبرانية والآرامية ... وكانت الآرامية أوسعها انتشاراً وهي التي كان يخطب بها المسيح

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عليه السلام ، وهي أقرب الساميات إلى العربية فالعربية ليست بعيدة ولا شاقة على تلك البقاع.

وأما العراق فكان للعرب بها صلة سنبينها الآن ، ولم يكن لمصر هذا ولا ذاك ، ولهذين السببين نجد اللغة العربية في العهد الجاهلي حوت ألفاظا من الفارسية وأخواتها الساميات ولم تحو شيئا أصلا من لغة المصريين .

فاللغة العربية إذن كانت غريبة على المصريين في نطقها وتركيبها وألفاظها فشق عليهم تعلمها بما لم يشق على الآخرين ، ولم تنتشر هذه اللغة في مصر إلا في القرن الثالث الهجري ، وحقا إن اللغة في العواصم غيرها في الريف ولكن هذا التأخر في اللغة يستلزم تأخرا في الفكر على أي حال .

هناك أمر ثانوي لا يتصل بموضوعنا مباشرة ولكنه ذو صلة بتأخر اللغة في مصر ذلك أن العرب لم يكن لهم بمصر قبل الفتح صلات قوية كالتي كانت بين العراق والشام ، فقرب المكان والإمارات العربية على تخوم الإقليمين أنشأت بينهما وبين العرب نوعا من المزج لم يتيسر مثله للمصريين ، ولم يكن من شأن هذا المزج أن يقف عند عملية الاختلاط ونقل الحضارة ، بل كان أبعد من ذلك أثرا حتى نجد الأمير (بهرام جور) ولي عهد الشاه « يزدجرد » ينشأ بين عرب الحيرة ويتعلم العربية ، ويستعين فيما بعد بقوة عربها على توليه عرش فارس ، وقد ظلت إمارة الحيرة إمارة عربية مدة تزيد على ثلاثة قرون ونصف القرن ، وعاشت إمارة الغساسنة في (جلق) مدة أطول ، وكان لها دور عامل في التقريب بين الشعبين واللسانين .

بجانب هاتين الإمارتين كانت هناك قبائل عربية تنزح من أواسط الجزيرة فتعيش على حواشي العمران طلبا للمرعى وطمعا في الخيرات وأحيانا للغزو ، وهذه عملية تقريب أخرى وكان كل من الفرس والرومان بسبب هؤلاء العرب وما لهم بهم من صلة يبعثون بمتاجرهم إلى داخل الجزيرة، حتى ليستظهر بعض مؤرخي الإفرنج أنه كان بمكة بيوت تجارية رومانية .

أما متاجر العرب التي كانت تتجه إلى الشمال فكانت تصل إلى أيلة والعقبة ، ومنها إلى غزة فتتصل بتجار البحر الأبيض ، ويرسل بعضها إلى مصر بواسطة تجار أجانب وقليلا أو نادرا ما يكونون عربا - فإذا قدرنا ما للتجارة - من قديم - من أثر في نقل الحضارة وتقارب اللغة وتغذية اللغات بالألفاظ من هنا ومن هناك - أدركنا أن مصر حرمت عاملا تمتع به الإقليمان الآخران .

هذا كله ونحن لا ننسى أن الهجرات البعيدة الساميين وموطنهم الأصلي هو الجزيرة ربطت بين أطراف الهلال الخصيب برابطة الدم والجنس وقربت اللهجات فلم تكن كل هذه البلاد غريبة على العرب ولا لغة العرب جديدة عليهم كما هو شأن المصريين .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولست أريد بهذا كله أن أنفى صلة مصر بالجزيرة والعرب ولعل من الأوفق أن أشير إليها لتتم بها الموازنة ، ولكن لا يدخل فى حسابنا هجرة الحاميين ولا حتى الساميين الذين وفـــدوا على مصر واستوطنوها فى تاريخها الجنسى المعروف فهذه هجرات لم يكن من شأنها أن تقيم علاقات فكرية أو اجتماعية أو تبقى على صلات بين محل إقامتها ومهدها الأول ولكننا نجد فيما حول مصر الميلاد صلات تجارية وفكرية .

وفد على مصر تجار من الجزيرة عن طريق البحر الأحمر ومسالك الصحراء الشرقية ، قامت لهم بصعيد مصر أسواق صغيرة أو مايشبه الأسواق واشتهرت منها مدينة قفط ولعلها لم تكن السوق الوحيدة لتجار العرب ـ وربما كانت أشهر مكان وأكبره لمتاجرهم لأنها تشبه العاصمة حتى أن اليونان سموا مصر كلها باسمها فقالوا « ايجبت » وسموا المصريين Cobtic وتحدث عنها المؤرخ الشهير استرابو Strabon المعاصر لهذه الفترة ٦٠٠ ق م - ٢٤ م ، فوصفها بأنها نصف عربية . ولكن ليس لدينا معلومات عن طريق التعامل ولا كيف كانت تصرف هذه المتاجر .

وأول صلات فكرية هى التى جاءت فى العهد المسيحى ـ فقد نشطت مصر فى الدعوة المسيحية ، وقام عدد من رهبانها بالكرازة خارج مصر ـ وكانت مصر مهد الرهبنة وامتد نظامها ونظام أديرتها إلى بلاد بعيدة جداً ومنها الشام والجزيرة ـ وإذا كانت شهرة إكليمنضو Climent وأوريجانوس من الأسماء اللامعة فى تاريخ الدعوة المسيحية فيجب ألا ننسى أن تلاميذهما الذين قاموا بنشر الدعوة كانوا جنوداً مجهولين حملوا تعاليم الرهبنة وعملوا بنوع ما على مزج مصر بما حولها .

ومن تلاميذ مدرسة الإسكندرية المسيحية « هلا ريون » الراهب الذى استقر بغزة ولقن الرهبنة أكثر من ثلاثة آلاف تلميذ مخلص فرقهم فى الجهات التى حوله ونزل الجزيرة منهم عدد كبير ـ ونحن نعلم أنه كان بالجزيرة مركز للدعوة النصرانية ونعلم الدور الذى لعبه فى تاريخ العرب فلنذكر أنه خلال القرن الرابع الميلادى ـ وهو عهد نشاط الدعوة المسيحية فى مصر كان الأسقف على نصارى العرب هو الناسك موسى المصرى .

وفى هذه الفترة المسيحية هاجر أيضا بعض العرب إلى مصر لسبب أو لآخر .

هذه الصلات على أى حال تعتبر صلات هينة بجانب صلات العرب بكل من العراق والشام ، وقد ذكر السيوطى أن قبط مصر يفخرون بأن منهم من صحب النبى وهو يعنى جبر بن عبد الله القبطى الذى أرسله المقوقس بهديته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانظر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كيف يفخرون بشخص واحد ومن يشبهه فى هذا من الشام والعراق لا يحصيهم العد .

وهناك شيء آخر لا يقل أهمية عما ذكرنا وهو طبيعة الإقليم وفطرة السكان فالعراق قطر نشيط مطيع مخلص ومصر إقليم متدين متعبد . هذه الصفات لها أثرها فى توجيه الحركة الفكرية خصوصا إذا لاحظنا الحركة السياسية .

فالعراق منذ فتحه يشارك فى أحداث السياسة والعداء بينه وبين الشام مستحكم منذ زمن الفرس والرومان - فلما غلب على أمره فى ميدان السياسة وجه نشاطه إلى الحركة العلمية ، والشام ظفر بمقر الخلافة ، ودار الحكم لبنى أمية ، وهؤلاء لم يكن من همهم تشجيع الحركة الدينية فنشط هناك أدب النفاق والمدح ولم تنشط كما فى العراق حركة الفكر والمناظرات ، ولأمر ما كانت النقائض - وهى نوع من المناظرات والجدل - تلقى بالمربد والكناسة - سوق العراق - ولم تقم مثل هذه بالشام ، ثم نجد نحواً كوفيا وآخر بصريا ولا نجد نحوا دمشقياً ، أما مصر فدفعتها نزعة التدين إلى العناية بعلوم الدين وغم حاجتها أكثر من أختيها إلى صناعة النحو ، وتقويم اللسان .

هذه الصفات هى سبب الهدوء فى مصر والثورات فى العراق - كثرت فى العراق مظاهر المناظرات بين المسلمين وغير المسلمين وبين المسلمين بعضهم وبعض - من رجال الفقه والكلام والنحو والأدب والسياسة - وظل قبط مصر الباقون على مسيحيتهم يجاورون من أسلم منهم ومن وفد من مسلمى العرب فى هدوء وصداقة - وبينما نشطت العلوم التى ذكرنا هناك قام بمصر التصوف العلمى لا الفلسفى - وكما كانت مصر مهد الرهبنة فى العهد المسيحى كانت مهد التصوف فى الإسلام .

والعقلية المصرية تقابل عن العقلية العراقية فى طبيعتها تباينا واسعا أخصه أنهم هناك ذوو فلسفة وجدل وتعليل وتحليل ، ونحن هنا تنبو أذواقنا عن هذا النوع ولهذا لم تستطع مدرسة الأسكندرية أن تطبع فى نفوس المصريين أثرا واضحا فظلت طوال عهدها تمثل مدرسة أجنبية بين المصريين واستفاد منها الأجانب أكثر مما استفاد المصريون ، ولو أنها تركت فى نفوسهم أثرا كالأثر الذى تركته الديانة الفارسية فى عقول العراقيين لكان للحركة الفكرية عصر الاسلام شأو كالذى كان بالعراق ولما تأخرت أيضا ولكن هذا الذى كان .

عبد الجليل شلبي

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

النيل فى مؤلف مصرى قديم

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

— ١ —

الجلال المحلى المفسر المشهور ، المعروف بجلال الدين المحلى الشافعى ، عالم مصرى عاش فى القرن الثامن ، وطارت شهرته فيه .

وفى عام ٧٨٠ هـ ألف كتابا صغيراً سماه مقدمة النيل السعيد وشرح أحواله ، وذكر عجائبه وغرائبه ، ومن أين يجىء وإلى أين سينتهى (ص ٢٣) .

وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة منذ أكثر من مائة عام وذلك عام ١٢٨١ هـ كما جاء فى آخره ، « تم طبع ما جمعه الإمام الجلال المحلى الجليل فيما يتعلق ببيان أحوال النيل ، على ذمة الشيخ النجيب ، الشيخ اسماعيل مصنوق ، الشهير بالعطار ، بالمطبعة البهية الكائنة بخط باب الشعرية ، بتصحيح الفقير مصطفى وهبى .

ويقع الكتاب فى ٣٨ صفحة من القطع الصغير ، ويشتمل الكتاب على مقدمة صغيرة وعدة فصول .

وجاء فى المقدمة : روى عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أربعة لاتشبع من أربع : عين من نظر وأنثى من ذكر ، وأرض من مطر ، وعالم من خبر ، ولما كان إقليم مصر مشتملا على أمـــور عجيبة ، استخرت الله تعالى أن أجمع فيه من الغرائب مالاينبغى لذوى العلم إهمالها وكيف ..؟ وكلهم أو أكثرهم لو سئل عن نهر النيل من أين يخرج من الأرض ، وفى أى مكان يذهب ..؟ لما أجاب عن ذلك ، وأنا إن شاء الله مبين لجميع ذلك ، قاصداً فيه الاختصار » .

وفصول الكتاب تبدأ بالفصل الأول فى بيان فضل النيل ، ثم يليه الفصل الثانى فى المكان الذى يخرج أصل النيل منه وبيان سبب خضرته ، ويلى ذلك عدة فصول عن : الأهرام ، وكورة أسيوط ، والحائط الممتد بالجانب الشرقى من النيل ، والمقاييس لمعرفة زيادة النيل ونقصانه ، والمكان الذى يذهب فيه ماء النيل ، والأنهار الأربعة وهى سيحون وجيحون والفرات والنيل ، والفرق بين البحر والنهر ، وأنواع الماء وما يستعمل فى الطهارة ... وبذلك ينتهى الكتاب .

— ٢ —

والكتاب ذو أهمية كبيرة لما يشتمل عليه من حقائق علمية أكدتها الكشوف العلمية الحديثة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

١ — يذكر الجلال المحلى فى الكتاب نقلا عن الجغرافيين العرب من أمثال الكندى والمسعودى ، أن النيل يخرج من جبل القمر خلف خط الاستواء (١) من عشرة عيون ، خمسة تجتمع فى بطيحة (٢) ، وخمسة تجتمع فى بطيحة ، ثم يجتمع بعد ذلك الماءان ، فيجرى على وجه الأرض نحو تسعمائة فرسخ ، وقيل ألف فرسخ ، فى عامرها وغامرها ، من عمران وخراب ، حتى يأتى بلاد أسوان ، من صعيد مصر ، وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من قسطاط مصر ، وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار يجرى النيل فى وسطها ، ولا سبيل إلى جريان السفن فيه . وهذا الموضع فارق بين مواضع سفن الحبشة فى النيل ، وبين سفن المسلمين ، ويعرف هذا الموضع من النيل بالجنادل والصخور ، ثم يأتى القسطاط فيقسم إلى خلجان : إلى بلاد تنيس ودمياط ورشيد وإلى اسكندرية ، كل يصب إلى البحر

ويذكر أن أحمد بن طولون فى سنة نيف وستين ومائتين بلغه : أن رجلا بأعلى مصر من الصعيد ، له ثلاثون ومائة سنة ، من من الأنباط ، ممن يشار إليه بالعلم ، وأنه علامة بمصر وأرضها من برها وبحرها وأخبار ملكها ، وأنه ممن سافر الأرض ، وتوسط الممالك ، وشاهد الأمم أبيضها وأسودها ، وأنه ذو معرفة بأنواع هيئات الأفلاك وأحكامها . فبعث إليه ابن طولون ، وأخلى له نفسه فى ليال وأيام كثيرة ، يسمع كلامه وإيراده وحكاياته ، فكان فيما سأله عن طول الأجناس وممالكهم ، قال : لقيت من ملوكهم ستين ملكا فى ممالك مختلفة ، كل منهم ينازع من يليه من الملوك ، وبلادهم حارة يابسة ، ثم سأله عن منتهى النيل فى أعلاه ، فقال : البحيرة التى لا يدرك طولها وعرضها ، وهى نحو الأرض التى فيها الليل والنهار مستويان طول الدهر .

٢ — ويذكر الجلال المحلى أنه حكى له بعض من أقام بالحبشة أن الغمام والمطر يستمر عندهم فى أيام زيادة النيل ليلا ونهاراً فى أعلى النيل ، وأن المطر يكثر جداً فى بعض السنين ويقل جداً فى بعضها ، فيعرفون كثرة النيل وقلته بسبب ذلك .

٣ — ويذكر الجلال أن مصر كانت وطن الأنبياء والمرسلين والأسباط وذى القرنين الإسكندر ، والحكماء اليونانيين ، والفلاسفة المتقدمين ، وذوى الهيئة والآلة والطلاسم والرصد والحركات والنجامات والمساحات والجبر والمقابلات وغير ذلك : كهرمس ، وبقراط وجالينوس وفيثاغورث وواليتوس وغيرهم .

(١) حيث يستوى الليل والنهار وأضيف إلى القمر لأنه يظهر تأثيره فيه عند زيادته ونقصانه بسبب النور والظلمة والبدر والمحاق (ص ١٧ من الكتاب)

(٢) مكان ينبطح من الأرض . والمراد بحيرة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وينقل المؤلف أوصافا شعرية جميلة عن كعب الأحبار الذى يقول : من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا أزهرت ، وإذا اطردت أنهارها ، وتهذبت ثمارها ، وفاضت بحارها ، وغنت طيورها ؛ وعن عبد الله بن عمر حيث يقول : من أراد أن ينظر إلى شبه الفردوس فلينظر إلى مصر ، حين يخضر زرعها ، ويزهر ربيعها ، ويكثر بالنور أشجارها .

ويروى عن المسعودى فى مصر : هى ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء ، فإن مصر فى شهور أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء ، فترى الدنيا بيضاء ، وفى شهر بابة تنكشف الأرض ، فتصير أرضا سوداء وتكثر فيها الزراعات ، وللأرض روائح طيبة تشبه رائحة المسك ؛ وفى شهور طوبة وأمشير وبرمهات يكثر عشب الأرض ونباتها فتصير الدنيا خضراء كالزمردة ، وفى شهر برمودة وبشنس وبؤونة يبيض الزرع وينور العشب فيشبه الذهب فى المنظر .

٤ — ويذكر الجلال أن مساحة أرض مصر التى تروى بالنيل عامرها وغامرها ٣٠ مليونا من الأفدنة ... وإذا كان هذا صحيحا فى الزمن القديم حيث تتشعب مياه النيل وتذهب إلى كل مكان ، فإنه غير صحيح اليوم حيث أصبح لمياه النيل مجار وفروع محدودة .

ويقول الجلال : إن على كور مصر ١٢٠ ألف رجل معهم المساحى والآلات ، سبعون ألفا على الصعيد ، وخمسون ألفا لأسفل الأرض ، لحفر الخلجان وإقامة السدود والجسور والقناطر وسد الترع وقلع القضبان والحلفاء وكل نبت يضر بالأرض (١) .

٥ — ويشير إلى مصب ماء النيل فى البحر عند شواطىء مصر (٢) .

٦ — وما ذكره عن الفرات ودجلة وسيحون وجيحون يثير العجب لدقته العلمية المتناهية (٣) .

— ٣ —

والكتاب مع صغر حجمه يثير الاهتمام ، لصحة معلوماته ، وكثرة إحاطته ، ودقة تفاصيله ، والمامه بالوصف الجغرافى الدقيق للنيل ومصر وما يتصل بهما .

والجلال المحلى بهذا الكتاب جدير بأن يوضع مع الجغرافيين العرب فى مكان بارز .

وهذا الكتاب جزء من تراثنا القومى الذى نرجو أن تمتد إليه يد العناية ، وأن يلقى من الاهتمام ما يستحقه ، فينشر نشرا علميا محققا ، ليحتل مكانته فى المكتبة الجغرافية العربية القديمة ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

---

(١) ص ٩ من الكتاب .

(٢) راجع ص ٢٤ من الكتاب .

(٣) راجع ص ٢٧ وما بعدها من الكتاب .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

براعة التصوير في شعر الأندلسيين

للأستاذ محمد محمد خليفة

للطبيعة الساحرة التي عاش بين أحضانها الأندلسيون أثر في تلك الصور الفنية الفاتنة التي غنى بها الشعر الأندلسي ، فقد استلهموا الطبيعة بدائع الصور فألهمتهم ، واستوحوها لوحات من الفن السامي فألهمتهم آياته ، تلك الطبيعة هي التي سحرت ابن خفاجة فعاش مفتونا بسحرها ، يشدو بنفثاته ، ويترجم عن لمساته ، ويغري الأندلسيين بالتمتع بجنات الخلد التي يعيشون بينها فيهتف فيهم :

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركمو
ولو تخيرت هذا كنت أختار
لاتحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنة النار

ولقد حاكوا الطبيعة فيما قدموا من صور ، وافتنوا فيما رسموا من ألوان ، وأعملوا قرائحهم في إبرازها حتى لكأننا نلمسها مجسمة في الشعر حين نقرأ لابن سفر المريني ، وهو يتحدث عن النسمة التي هبت من (دارين) على النهر ، ومرت على صفحته ناشرة جناحها بين أعطار الخير والنسرين ، وإنه لبديع تصويره النسمة بطائر في قوله :

يا هبة باكرت من نحر دارين
وافت إليّ على بعد تحيني
مرت على صفحات النهر ناشرة
جناحها بين خيري ونسرين

وتأخذنا براعة التصوير حين نقف على الصورة التي يقدمها الشاعر للد والجزر في نهر إشبيلية وندرك حسن تعليله لهما ، وكأنهما ليسا من فعل الطبيعة حين يكشف عن معركة بين النسيم والنهر ، تلك المعركة التي انتصر فيها النسيم فشق جيب قميص النهر وولى هاربا وراء الشاطئ ، وخرج النهر من شاطئيه وانفلت من قيديه ، وخرج عاريا محتدا يطلب ثأره ، فضحكت الحمائم هازئة ، فعاد بين الشاطئين ، وضم إليه إزاره خجلا من الورق كل ذلك يبدع فيه حيث يقول :

شق النسيم عليه جيب قميصه
فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها
هزءا فضم من الحياء إزاره

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وفى صورة أخرى يرى الشاعر غلاما جميلا يستحم فى النهر ، وقد تعلق بزورق يسير معه حيث سار ، فيقف مع تلك الصورة ، ومعه قريحته يرى ثم يصور ذلك الغلام (البدر) وهو فى وسط اللجة يلمع ، وقد جعل الماء سماء له ، يسبح فيها مرتبطا بالفلك فيقول :

انظر إلى البدر الذى لاح لك
فى وسط اللجة تحت الحلك
قد جعل الماء سماء له
وصير الفلك مكان الفلك

ويرى شاعر آخر صورة الشهاب ، ينقض من السماء ، مخترقا ظلمة الفضاء فيربط بين هذه الصورة ، ومنظر الفارس يعدو على جواده وقد حل الإعصار عمامته البيضاء ، فطارت من خلفه مستطيلة ، فيربط بين الشهاب وسرعته وعمامة الفارس ، وهى فى يد الريح وراء الفارس وذلك فى قوله :

وكوكب أبصر العفريت مسترقا
للسمع فانقض يذكر إثره لهبه
كفارس حل إحضار عمامة
فجرها كلها من خلفه هذبه

وفى صورة ماجنة معربدة يقدم ابن شهيد حيث السكارى ولهوهم ، بعد أن فعلت الخمر بهم ما فعلت ، ولعبت برءوس شاربيها فطوحوا قلانسهم ، وجذبوا أطراف عمائمها ، وقد عاش فى هذا الجو ، ثم انتزع الصورة المعبرة فقال :

وعلا بنا سكر أبى
إلى الإنابة للحارم
نرمى قلانسنا له
ونجر من هدب العمائم

وما أروع تلك الصورة الماجنة التى يبدع فيها ابن شهيد ، فيقدم مجلسا من مجالس الخمر قام يرقص فيه ، وهو مشلول يتكئ على عصاه ، ويتمنى لو عاد إليه شبابه ، وراجعته عافيته ليسير على رأسه راقصا فى حضرة مليكه ثم يتحدث عن إبريق الخمر ، وضحكه من منظره الراقص المرتعش ، ثم يتحدث عن بكاء الإبريق حين رأى شلله ، ولم تكن دموعه غير الخمر التى يتعاطاها الندماء ، كل ذلك يسوقه فى قوله :

هاك شيخ قاده السكر لكا
قام فى رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتا
فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها منفردا
يفترس أخفى عليه فاتكا
أنا لو كنت كما تعرفنى
قمت إجلالا على رأسى لكا
قهقه الإبريق منى ضاحكا
ورأى رعشة رجلى فبكى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويرى شاعر مدينة بلنسية الجميلة ، وقد حفت بالأشجار الباسقة الناضرة واحتجبت منازلها وراء الأرواح ، فتخيل أنها الكاعب الحسناء ، وأنها ارتدت ثوبا سندسيا ، وكأنها تسترت بأكمامها خجلا حتى لا تظهر للرائى أو القادم ، إنه فعل العذارى الجميلات فى عهود الخفر والحياء ، فاستمع إليه يقول :

كأن بلنسية كاعب
وملبسها سندس أخضر
إذا جئتها سترت نفسها
بأكمامها فهى لا تظهر

وفى مجلس من مجالس الخمر والغناء يرسل ابن حمديس الصقلى (ريشته) فيرسم لوحته الناطقة فى تلك الهالة التى تؤلفها رشاقة الهيف تعلوهن الوجوه القمرية ، ويتخيل ملك اللهو وهو يرى الهموم تثور فيقتلها ، وتتولى القيان التى تعزف على أوتارها تسكين الأحزان وهو بين معانقة عودها ، ومقبلة مزمارها ـ هذه صورة يقدمها ابن حمديس فى قوله :

وعدنا إلى هالة أطلعت
على قضب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهمو
م تثور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الأسى
قيان تحرك أوتارها
فهذى تعانق لى عودها
وتلك تقبل مزمارها

ويقف ابن شرف القيروانى أمام منظر الفجر ، وقد اكتسى الأفق بالحمرة وتساقط رذاذ الندى ثم يلقى نظرة على النجوم ، وهى تختفى أمام نور الصبح ، فيصور الفجر غلاما ظهرت حمرة الخجل فى خده ، وهنى عرق الحياء فيه ، ثم يصور الخجل وقد تجاوز الليل إلى نجومه فتساقطت تساقط الأوراق فقال :

وألاح الفجر خدا خجلا
جال من رشح الندى فى عرق
جاوز الليل إلى أنجمه
فتساقطن سقوط الورق

وكتب ابن زيدون وهو فى الزهراء (ضاحية بناها الناصر إلى جانب قرطبة وكانت آية فى الفن) وقد ثار به شوقه إلى ولادة (محبوبته) فصور لها شوقه وذكراه لها فى صحوة الجو واعتلال الأنسام فى الأصائل إشفاقا عليه ، ثم صور الروض والماء الفضى البسام الذى يحلى صدره ثم ذكر أن منظر الماء الفضى يحكى مكان أطواقها على صدرها حينما تحلها عنها ، وذلك ما يقدمه ابن زيدون فى قوله :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وللنسيم اعتلال فى أصائله
كأنما رق لى ، فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم
كما حللت عن اللبات أطواقا

وكما صور ابن زيدون الروض ، وابتسام الماء الفضى فيه ، أبرزه الوزير ابن عمار فى صورة أخرى فشبهه فى توشية الزهر له وتساقط حبات الندى عليه بالحسناء التى لبست ثيابا موشاة ، وتقلدت بالجواهر ثم نظر إلى صورة النهر فى بياضه ، والروض يطل عليه فشبهه بالمعصم الأبيض الصافى ، وقد أطل عليه رداء أخضر وذلك فى قوله :

والروض كالحسنا كساه زهره
وشيا وقلده نداه جوهرا
روض كأن النهر فيه معصم
صاف أطل على رداء أخضرا

أما إمام وصافى الطبيعة ابن خفاجة فيزجى لنا صورة جميلة للنهر المتدفق فى البطحاء ويرسمه فى تعطفه كالسواد ، ويصوره فى بياضه والزهر يحيط به بنهر المجرة (البياض الذى يبدو فى السماء) والنجوم حواليه ، ثم ينظر إلى النهر فى تعطفه ، والرياض من حوله فيرى أنه قرص من الفضة ، وضع فوق بردة خضراء ويلقى نظرة أخرى على الأغصان وهى تحف بذلك النهر الصافى من جانبيه فيتخيل أنها الهدب التى تحف بالمقلة الزرقاء ثم يرى انعكاس أشعة الشمس فى وقت الأصيل على النهر الأبيض فيبرز تلك الصورة بعد أن أضاف فيها المشبه به إلى المشبه (ذهب الأصيل) (لجين الماء) .

ذلك ما يقدمه ابن خفاجة فى قوله :

لله نهر سال فى بطحاء
أشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السواد كأنه
والزهر يكنفه مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصا مفرغا
من فضة فى بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها
هدب تحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى
ذهب الأصيل عن لجين الماء

وهذه لوحة أخرى يقدمها ابن خفاجة ولكنها لوحة تصور قصة عاش فيها الشاعر ليلة طويلة مخيفة فى مفازة وقد لمع فى السماء كوكب الشعرى وكأنه فى تلهبه فى الظلام دينار يلمع فى كف زنجى الدجى وقد لفت الظلمة الشاعر ، وراعه فيها ذئب ألم به مع الدجى وقد تساقط الندى فحملته ريح الصبا وبللت فيها فروة الذئب ، فاقشعرت وفى هذه الظلماء نظر الشاعر إلى مقلة الذئب يتطاير منها الشرر فهاج بأسه كذلك ، ونقلنا الشاعر بعد ذلك إلى الدجى ، وقد خلع عليه خلعة كانت أزرارها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أضواء النجوم التى تلمع من بعد على صدره ، وذلك كله يقدمه ابن خفاجة فى قوله :

ومفازة لا نجم فى ظلمائها
يسرى ولا فلك بها دوار
تتلهب الشعرى بها وكأنها
فى كف زنجى الدجى دينار
قد لفنى فيها الظلام وطاف بى
ذئب يلم مع الدجى زوار
يسرى وقد نضح الندى وجه الصبا
فى فروة قدمسها اقشعرار
فمشوت فى ظلماء لم يقدح بها
إلا لمقلته وبأسى نار
ورنلت فى خلع على من الدجى
عقدت لها من أنجم أزرار

وهكذا نرى الشعر الأندلسى غنيا بصوره المحكمة النسج البديعة الألوان ، حين تصوره لمجالس الخمر والغناء ووقوفا على جمال الفن وحين يشهد الطبيعة وقد وشت يدها كل شئ فى الأندلس ، فبدت البلاد وكل ما فيها جميل يراه الشاعر نسيم الروح فيتمنى أن يعمر ليتمتع حياته بين أحضان ذلك النعيم ، وتلك هى الأمنية التى هتف بهـــا ابن سفر المرينى :

يا ليت لى عمر نوح فى إقامته
وأن مالى فيه كنز قارون
كلاهما كنت أفنيه على نشوا
ت الراح نهبا ووصل الحور والعين

ونكاد حين نمر بالصور التى قدمها الشعر الأندلسى ننسى أن الزمن طواها ، بل محاها منذ خمسة قرون ، ونكاد حين نقف ساعة على ذلك التراث الخالد نخدع أنفسنا بأنه حى تشهده العيون ، وأنه لا يحمل الذكريات الدائية بل يحمل الحقيقة التى لا تغيب .

محمد محمد حسين

أرفع مراتب الفن

« أرفع مراتب الفن ... فن يمس إنسانيتنا بالتكريم ، ويهمى على مشاعرنا بالحب ، ويعمق أحاسيسنا بالعون ... فآية كريمة تجنبنا عيوبنا ... وآية تحث على فضيلة ... وبيت يغمرنا بالرقة ... وكلمة تستل السخيمة ... كل ذلك ... هو الفن ... فن الحب للحياة ... لحياة أفضل ... وحمل أسمى ... وأخوة نبيلة » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الكتب

نقد وتعريف : محمد عبد الله السمان

التكافل الاجتماعي في الإسلام :

تأليف الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة

عرض وتقديم : الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

هذا هو موضوع كتاب اليوم أو خط عريض من خطوط الشريعة الإسلامية .

كتاب (التكافل الاجتماعي في الإسلام) لمؤلفه الأستاذ الجليل الشيخ (محمد أبو زهرة) تعميق لمفهوم التضامن الاجتماعي على ضوء الشريعة الغراء بأسلوب علمي ، فكم من كتب عالجت « الاشتراكية » ولكنه علاج مرسوم بمعنى أن أصحابها عندهم فكرة جاهزة يريدون سنداً لها من الدين أو تطبيقاً سابقاً . وهنا يضطرون إلى افتعال التخريج والتفسير مع أن الاشتراكية الحقة معنى إنساني نبيل إذ تستهدف تحرير الإرادة الإنسانية من رق الاستغلال والاضطرار والقهر والتبعية ، ولكن الشيخ (محمد أبو زهرة) أستاذاً لمادة الشريعة الإسلامية يعرف جوهرها ومراميها وأسرار حكمتها ، فهو يعرفنا بها تعريف المتمكن المصدق ويناقش على هديها مختلف الآراء والمذاهب ثم يرجح ما يلتقي مع روحها منه في جهارة الحق لا تعرف مواربة أو جمجمة فالكتاب من هذه الناحية (ثقة) يعتد به . وما بالقليل أو الهين الشأن أن يكون الكاتب صادقاً وأميناً .

استهل الأستاذ الجليل كتابه بالتنويه بضرورة « الرأي العام » فالإسلام (جاء لإيجاد مجتمع فاضل تتعاون فيه كل القوى بحيث لا يطغى فريق على فريق وأول مظهر للمجتمع الفاضل في الإسلام ، هو وجود رأي عام فاضل يتعاون على الخير ودفع الشر ...)

وإن الرأي العام له رقابة نفسية فإذا صلح هذب الآحاد والجموع ، وإذا فسد وتقاعس فسد المجتمع . (وأن الجماعة كلها تكون آثمة إذا رأت الشر يسير رافعا رأسه وسكتت عنه . وأن الأمة كلها تعتبر مشتركة مع الآثمين إذا رأت الإثم ولم تعمل على منعه ، ولقد ذم القرآن الكريم بني إسرائيل لأنهم أفسدوا مجتمعهم بترك الآثمين يرتعون في إثمهم من غير أن يهوم . . . « لعن الذين كفروا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

ووسيلة الإسلام إلى إيجاد مجتمع فاضل : الحياء ، والاستتار . فالحياء قيد اجتماعى نفسى ، والاستتار حصر للشر . (قد تكون العقوبة علنية ، ولكن الجريمة يجب ألا يعلم أمرها إلا مع عقوبتها لأن إعلانها يفسد الجو الخلقى . للمجتمع .. ولذلك اعتبر الإسلام من يرتكب جريمة ويعلنها قد ارتكب جريمتين : جريمة الارتكاب ، وجريمة الإعلان) .

ثم تكلم عن الفردية والجماعية فى الإسلام على ضوء النظامين السائدين فى العالم الآن وانتهى من حديثه بالقول إن الإسلام (لا يأخذ بأى النظامين جملة أو تفصيلا ، فهو لا يمحو حرية الإنتاج الفردى ولا يمكن تلك الحرية من كل شىء) .

فحرية الإنتاج ، والحرية الشخصية بكل ضروبها . وحرية الملكية الفردية كلها كفلها الإسلام للفرد على ألا يضار الغير وإلا قيد الحق تقييداً مدنياً .

والعبادات فى الإسلام وإن كانت فى ظاهرها علاقة العبد بربه إلا أن الإسلام قصد بها فيما شرعت له ، تربية الضمير الاجتماعى الذى يحكم الميول والنزعات قبل أن يحكمها القانون الوضعى الذى قد يوجد فى النفس ما يبرر مخالفته . فإذا لم تحقق العبادات هذا الهدف البعيد غدت قشوراً بلا جوهر وزيفا خادعا . .

وفى ضوء هذا الفهم العميق مضى الشيخ محمد أبو زهرة يتحدث عن أركان الإسلام من صلاة وصوم وحج وزكاة وتطرق من هذا إلى حكمة الإسلام فى الكفارات التى هى فى جوهرها تكافل اجتماعى .

ثم تحدث عن الحرية الفردية التى تكبحها نفس صاحبها بقيود الواجب قبل أن تقيدها قيود خارجية ، وشعوره بحق الناس ووجوب مراعاة مشاعرهم . فإذا لم يتوافر القيدان الداخليان تدخل القانون لا لتقييد الحرية ولكن لتقييد الفهم الخاطىء لها . . لتقييد الانطلاق فيها بغير مراعاة حقها فإن الإطلاق المطلق يقيد الحرية العادلة .

ثم تحدث عن الملكية باعتبارها (حق أعطاه الله تعالى وحده لعباده فى قيود وحدود) ، ولهذا يحترم حق صاحبها فلا تنزع منه .

وقد ناقش المؤلف العالم ، الرأى القائل بأن الملكية وظيفة اجتماعية وأنكر هذا التعبير على أن يعرف أنها (بتوظيف الله تعالى لا بتوظيف الحكام ، لأن الحكام ليسوا دائما عادلين) .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولكن ولى الأمر العادل (له أن يتدخل لتقرير القيود على الملكية إن لم يلاحظها المالك ، وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه تدخل فمنع بقاء الملكية عند المضارة مع تعويض) ص ٢٤ .

وضرب المؤلف مثلا : واقعة سمـــرة ابن جندب مع الانصارى فى حضرة الرسول وقصة الضحاك ومحمد بن مسلمة فى مجلس عمر .

كما أوضح المؤلف نقطة هامة هى أن الملكية مع ما كفل لها الإسلام من ثبوت واحترام فإن الحقوق التى تجب عليها تتزايد فى الظروف القاهرة كالفقر أو المجاعة بما يقرب من إشاعتها وتعميمها تحقيقاً للتكافل الاجتماعى الذى يستهدفه الإسلام فى أحكامه وعباداته على السواء . وهنا ضرب المؤلف مثلا (سنة الرمادة) فى عهد عمر بن الخطاب) .

إن ملاك الرأى فى الملكية أنها حق للآحاد فى الحدود التى أشار إليها الدين ، وهى بهذا (من قبيل احترام الشخصية الإنسانية ، حتى لا يكون الآحاد كالجماد ، ويكون البناء الاجتماعى كالأحجار بعضه بجوار بعضه من غير إرادة إنسانية .

إن الإسلام لم يجىء لتنظيم الدولة فقط ، أو فرض سلطانها فى كل شىء ، بل جاء لايجاد مجتمع تتلاقى فيه الإرادات الإنسانية الحرة نحو هدف واحد وهو إقامة مجتمع سليم قوى ، لاتفنى فيه قوة فى قوة أخرى) ص ٢٦ .

ثم فصل المؤلف البيان فى الأموال التى يجوز امتلاكها والتى لا يجوز فيها الامتلاك وهو تفصيل طويل مدعم بالأسانيد الفقهية وهو مع التدعيم يناقش ويرجح . ثم يتكلم بتفصيل آخر عن ملكية الأراضى ومقدار قوة اليد عليها أهى يد اختصاص أم يد ملكية تامة . وقد رجع بأصول هذا الموضوع إلى عصر النبوة والفتح . وأبان وجوه الرأى فيه بعد النبى من خلفاء وفقهاء . ثم تحدث عن طرق كسب الملكية الأربعة من زرع وأحياء موات الأرض ، وعمل ، ومخاطرة للكسب والخسارة ورابعها : الانتظار . ووضح كلا مبينا حكم الإسلام فيها وهو حكم إقرار فيما يتعلق بالثلاثة الأولى ، ومنع للرابع أى الانتظار لتعارضه مع التكافل الاجتماعى غاية الإسلام الأولى .

ثم أنشأ فصلا مستقلا عن قيود الملكية المانعة مثل الضرر المؤكد الوقوع والضرر الذى يغلب على الظن وقوعه ، والضرر الكثير غير الغالب . أما إذا كان الضرر الناجم عن الحق الخاص قليلا (فالحق باق على أصل المشروعية ، لأن ضرر المنع ضرر مقطوع به بالنسبة لصاحب الحق ، وهو صاحب الإذن الخاص فلا يلتفت إلى الضرر القليل . . والشرع الإسلامى فى مقرراته اعتبر غلبة المصلحة ولم يعتبر ندرة الضرر أو قلته) ص ٦٦ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقد استند المؤلف فى هذا إلى كتاب (الموافقات) للشاطبى .

ثم تكلم الأستاذ الشيخ أبو زهرة عن ميراث الملكية فأبان أن (الحقوق فى الشريعة الإسلامية تورث ما دامت قابلة لأن تنتقل من ذمة إلى ذمة ، وتخلف ذمة ذمة أخرى فى الأموال) ص ٦٧ . وكيف أن النبى صلى الله عليه وسلم (عد المواريث نصف العلم الإسلامى) ص ٦٧ .

كما أبان حكمة الشارع الإسلامى فى جعل الوراثة فى الأسرة مجتمعة مع أولية بعضها على بعض وهى حكمة أجل وأكرم من نظرية الشيوعيين ونظرية الأفراديين وكلاهما أطاح للأسرة .

ثم تحدث الشيخ الجليل عن عدالة التوزيع الإسلامى للميراث ومنطقه فيه ... « ألا فالتمسك بالإسلام » .

ثم انتقل الكتاب إلى الحديث عن التعاون لدفع أضرار العجز فالإسلام دين التكافل الاجتماعى عالج العجز فى الأسرة بإلزام الوارث بالنفقة ، ومن إنسانية الإسلام وجوب النفقة مع اختلاف الدين إذا كانت نفقة الأصول والفروع (المذهب الحنفى) .

ومن أصالة الإسلام فى هذا الباب أن أوجب النفقة على الأسرة أو الدولة لطالب العلم ذى الموهبة التى (تمكنه من السير فيه إلى أقصى مراحله لأن المواهب يجب أن تظهر) ص ٧٤ .

ومن نبله فى هذا الباب أنه حين عرف من تجب عليه النفقة بأنه ذو اليسار المكسوب ، لم يشترط أن يكون الولد بالنسبة لأبويه متيسراً لكى يجب أن يبينهما فى شيخوختهما بل الشرط فقط القدرة على العمل فمن لا يسوغ التأفف منهما لا يجوز تركهما حائعين .

ومن لفتات التقنين الإسلامى أن قضايا النفقات تكون من غير رسوم تدفع كما هو المقرر فى الفقه الإسلامى .

وكما أوجب الإسلام النفقة العاجز على ذوى الفضل من أسرته فقد أوجبها على الأسرة الكبرى وهى المجتمع ممثلا فى الدولة إذا لم يكن فى القرابة قاصيها ودانيها من يستطيع الإنفاق على الفقير العاجز . وهنا يقول المؤلف العالم .

(وإذا لم تقم الدولة بواجبها فى ذلك فإن القضاء يحكم عليها ويلزمها كما قرر الفقهاء وذلك مبدأ لم يسبق به الإسلام) ص ٧٦ .

ثم فصل الحديث عن (الزكاة) التى شرعت فى الإسلام فى السنة الثانية من الهجرة وبين مصادرها وأحكامها ومصارفها وهى ثمانية قال الإمام الشافعى بتوزيع الزكاة بينها بغير إغفال .

وفى كل ناحية لا بد للفقه الإسلامى من لمسة . ولفتته فى باب الزكاة أنها (تصرف فى البلد الذى جمعت فيه ، ولا تنقل إلى غيره من بلاد الدولة الإسلامية إلا بما يفيض عن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حاجات هذا البلد وما يفيض عن المجموع يصرف فى الجهاد فى سبيل الله) ص ٩٥ .

وفى الصفحات الأخيرة من الكتاب تحدث المؤلف عن ألوان من التكافل فى المجتمع الصغير كالبيت والحى والقرية . فأبان حرمة الجوار فى الإسلام وحب الإخاء منذ لقاء المهاجرين بالأنصار ، قرابة اجتماعية ، ثم تحدث عن المبادىء التعاونية التى أقرها الإسلام ومنها تعاون أهل كل قرية فيما بينهم فى سداد الخراج وغيره وقد استنت مصر هذه السنة فى أول الفتح الإسلامى وقد أوضح المؤلف مزايا هذا النظام بل دعا إليه على أساس (إنه اختيارى توجيهى لا إجبار فيه يؤدى إلى ذهاب الأحقاد بين الزراع ، فلا يحرق واحد زرع أخيه لأنه زرعه ولا يقتل ماشية أخيه لشعوره بالأخوة الكريمة من غير ما إكراه) ص ٩٩ .

وفى الختام تحدث عن الكفارات والنذور وألوان من الصدقات اللازمة والصدقات المنثورة والوقف .

وخير مايقال فى الكتاب ما ختم به صاحبه القول . فهو (نظرات فى التكافل الإسلامى ويلاحظ أن فيها توزيعا لمصادر القوى فى الدولة بحيث لا تطغى فيها قوة على قوة ، وفيها تمكين الجميع من أن يعملوا بمقدار طاقتهم مع احترام الحقوق الخاصة التى لم تتجاوز الحدود المرسومة من الشارع ، ثم كان فيها التأمين الاجتماعى على أوسع مدى من غير إرهاق لأحد) ص ١٠٥ .

وحسب الإسلام قدرة وصلاحية تأصيله هذه القواعد كلها على هدى الفطرة السليمة النقية وعلى ضوء صالح الفرد والمجموع .

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

* * *

كتب جديدة

العبادات

تأليف : الإمام المهدى :

الناشر : مكتبة الكاملابى ـ القاهرة .

قدم للكتاب السيد الصديق المهدى الخليفة الحالى بمقدمة عرض فيها الدين والإنسان والدين والآمال والآلام ، والدين والأخلاق والمعاملات ، والإسلام والحضارة الإنسانية والحياة المادية ، ثم أجاب عن هذا السؤال لماذا أصبح الإسلام غريبا ؟ أما الكتاب نفسه فهو مجموعة من الإرشادات والتوجيهات التى كان يصدرها لأتباعه الإمام المهدى قائد الثورة المهدية السودانية وقد تضمنت منشورات المقيدة فى ترتيب الصلاة كما بما يفسدها ويصلحها ، والصلاة فى أسرار المناجاة ، ثم بحوثا تتعلق بأصول الأحاديث التى وردت فى منشور المصافاة وبأقوال الأئمة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الاجابة لجنة الفتوى)

أطعام عن صيام

السؤال :

أفطر فى شهر رمضان الماضى بعد تسعة أيام منه للمرض بعد أن أمره الطبيب بذلك وقد لازمه المرض حتى رمضان هذا العام فأفطر ، فماذا يجب عليه ؟

عبد الجواد شبنه / القاهرة

الجواب :

الفطر للمرض جائز شرعا لا إثم فيه ومن أفطر للمرض يجب عليه القضاء بمقدار ما أفطره من الأيام بعد زوال المرض عنه وما دام لم يقصر فى القضاء لا فدية عليه ، أما من قصر فى القضاء بأن شفى من مرضه وتمكن من القضاء ولم يقض ما فاته حتى دخل عليه رمضان العام الكامل فعليه فدية التأخير عن كل يوم أخر قضائه ، والفدية هى مد عن كل يوم ، والكيلة بالكيل الموجود الآن تكفى عن ١٦ يوما تعطى للفقير والمسكين وهو من ليس عنده مال أو كسب يكفيه ويجوز إخراج القيمة وإعطاؤها للفقراء والمساكين فالكيلة تساوى ٥٠ قرشا يخرج هذا الثمن عن ١٦ يوما ، ويوزع على الفقراء والمساكين .

صوم رمضان بغير صلاة

السؤال :

يسأل عن يصوم رمضان ولكنه لا يصلى هل يصح صومه ؟ وهل يصح الصوم لمن لم يغتسل من الجنابة أم يكون صومه باطلا ؟

محمدين رجب / عنابة / الجمهورية الجزائرية

الجواب :

فرض الله تعالى كلا من الصلاة والصيام ولم يجعل فريضة أحدهما متوقفة على الأخرى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فمن صام ولم يصل فقد فعل بعض الفرائض وترك البعض الآخر ، يسقط عنه ما أداه ويزال مطالبا بالآخر .

وليست الطهارة من الحدث الأكبر شرطا لصحة الصوم فمن لم يغتسل من الجنابة وصام فصومه صحيح وإن كان مطالبا بالغسل ليتمكن من أداء الصلاة المفروضة عليه .

السؤال :

رجل مريض (بالربو) وفى الصباح يحصل له ضيق فى التنفس لأنه لم يتناول المسكن فهل له أن يفطر ؟

محمد عبد المجيد

الجواب :

إذا كان عدم تناول المسكن يترتب عليه زيادة فى المرض لا يحتملها وأخبر الطبيب الحاذق بذلك جاز له تناول المسكن والإفطار منعاً لزيادة المرض ثم إن أمكنه الصوم فى المستقبل قضى أفطره ، وإذا لم يمكنه القضاء فإنه يفدى عن كل يوم أفطره والفدية تكون بإخراج مد عن كل يوم والكيلة تجزيه عن ستة عشر يوما .

السؤال :

مريض بمرض الصدر وصف له الدكتور المعالج (بخيخة) ليستعملها عند الأزمة فكان يصوم ويستعمل هذه البخيخة فى اليوم عدة مرات فما حكم هذا الصيام ؟

عبد الحميد عمر البحيرى

الجواب :

إذا كانت هذه (البخيخة) تحوى مادة تصل عند استعمالها إلى الحلق تبطل الصوم وتجعله غير صحيح وما دام مريضا لا يقدر على الصوم فالله تعالى لم يلزمه بأن يصوم بل جعل الفطر مباحا له فإذا شفى من مرضه هذا فعليه قضاء ما فاته من الصيام وإن لم يستطع القضاء فعليه عن كل يوم مضى مد من الطعام والكيلة الواحدة تكفى عن ستة عشر يوما .

السؤال :

نذرت أن أصوم ثلاثين يوما ولكن لا قدرة لى الآن على الصيام لمرضى ، ولكن فى استطاعتى أن أفدى عن هذه الأيام فهل يصح الإطعام والفدية أم لا بسبب عدم صيامى ؟

أبو الفتوح محمد الشريف

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الجواب :

يصح له الفدية عن كل يوم من طعام حيث عجز عن الصوم الذى التزمه بالنذر ولم يرج شفاؤه وقدرته عليه وتجزئ الكيلة عن ستة عشر يوما وله أن يخرج الفدية .

السؤال :

١ — إذا قبل الرجل امرأته وهو صائم أولمسها ، أولمس امرأة أخرى يحل له نكاحها فهل يفسد ذلك صومه ؟

٢ — عانق الرجل زوجته وهو صائم فأنزل بدون جماع فهل يفسد صومه ؟

٣ — إذا وطئ الرجل امرأته ثم نزع قبل أن ينزل فهل يجب عليه الغسل أو يجب عليه الوضوء فقط ؟

٤ — إذا كذب الرجل وهو صائم فهل يفسد صومه ؟

الجواب :

عن **الأول** : بأن تقبيل الزوجة أو لمسها وهو صائم لا يفسد الصوم ومن الورع ترك ذلك لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

وأن لمس المرأة الأجنبية وهو صائم لا يفسد الصوم كذلك ولكنه حرام فى رمضان وفى غيره وفى رمضان تكون الحرمة أشد .

وعن الثانى : بأنه إذا عانق الرجل زوجته وهو صائم فى رمضان فأنزل من غير جماع فسد صومه ووجب عليه قضاء هذا اليوم .

وعن الثالث : بأن الرجل إذا وطئ زوجته ثم نزع قبل أن ينزل وجب عليه الغسل لقوله عليه الصلاة والسلام إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل .

وعن الرابع : بأن الكذب حرام فى رمضان وفى غيره ولكنه لا يفسد الصوم وإنما ينقص الثواب فقط .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أنباء وآراء

قسم عال للدراسات الإسلامية والعربية

بكلية الشريعة بجامعة الأزهر

افتتح القسم العالى للدراسات الإسلامية والعربية بكلمتين للإمام الأكبر شيخ الأزهر والسيد مدير جامعة الأزهر ، وأهمية هذا القسم مما لا يحتاج إلى توضيح ، فهو كما قال السيد مدير الجامعة : إحياء للأزهر العتيق من جديد ، فالجامع الأزهر هو أبو الجامعة والجامعة بدون الأزهر يتيمة .

وهذا نص القرار :

نائب رئيس الوزراء للأوقاف وشئون الأزهر .

بعد الإطلاع على القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها والقوانين المعدلة له .

وعلى مذكرة جامعة الأزهر المؤرخة ٢٥ / ٢ / ١٩٦٥ :

« قرر »

المادة الأولى :

ينشأ فى كلية الشريعة بجامعة الأزهر قسم للدراسات الإسلامية والعربية ، وتكون الدراسة فيه على مثال ما كان يدرس فى القسم العالى بالجامع الأزهر ، بحيث تشمل التوحيد والفقه وأصوله وعلوم البلاغة ، وكافة العلوم الإسلامية والعربية ، ويطلق عليه « القسم العالى للدراسات الإسلامية والعربية » .

المادة الثانية :

يكون مقر هذه الدراسات فى بناء الجامع الأزهر ويتولى التدريس فيه أساتذة الجامعة الحاليون والسابقون ، ومن يرى مدير الجامعة ندبهم لهذا الغرض من المتخصصين فى العلوم الإسلامية والعربية .

المادة الثالثة :

يتولى مجلس الجامعة تحديد مكافآت القائمين بالتدريس فى هذا القسم والقائمين على إدارته .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المادة الرابعة :

يعين مجلس الجامعة رئيس هذا القسم ، بعد ترشيح مدير الجامعة ، وأخذ رأى شيخ الأزهر .

المادة الخامسة :

يقبل فى هذا القسم الطلبة الحاصلون على الشهادة الثانوية الأزهرية أو ما يعادلها من الشهادات الأزهرية وغيرها ، وكذلك من يستطيع متابعة هذه الدراسة من مبعوثى الدول الإسلامية بعد امتحان خاص يجريه القسم .

المادة السادسة :

توزع برامج الدراسة فى هذا القسم على أربع سنوات ، يمنح الطالب فى نهايتها شهادة تسمى « الاجازة العالية للدراسات الإسلامية والعربية » ، ويكون لصاحبها الحقوق التى تعطى للحاصلين على درجة الاجازة العالية للكليات والمعاهد بجامعة الأزهر .

ويجوز لخريجى هذا القسم الحاصلين على ثمانين فى المائة من مجموع الدرجات الالتحاق بأقسام الدراسات العليا فى كليات : أصول الدين والشريعة والدراسات العربية .

المادة السابعة :

تطبق قواعد الامتحانات فى كليات الجامعة على هذا القسم ، مع مراعاة ما يلى :

(ا) لا تحسب أعمال سنة للطالب فى هذا القسم .

(ب) يكون الامتحان فى هذا القسم على دورين يحدد موعد كل منهما مجلس الجامعة وللطالب الحق فى تأدية الامتحان كله أو بعضه فى أى الدورين شاء .

المادة الثامنة :

تطبق على هذا القسم قواعد التأديب الخاصة بأعضاء هيئة التدريس وبالطلبة الواردة فى قوانين الجامعة ولوائحها .

المادة التاسعة :

إلى أن يعين رئيس لهذا القسم ، وإلى أن توضع برامجه ونظم الامتحانات فيه فى اللائحة التنفيذية للقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر ، يتولى مدير الجامعة إدارة هذا القسم فى نطاق القواعد الواردة فى هذا القرار .

على أن يتخذ مدير الجامعة الاجراءات اللازمة لتحقيق هذا الغرض .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المادة العاشرة :

على الجهات المختصة تنفيذ هـــذا القرار ويعمل به من تاريخ صدوره .

٢٦ من شوال سنة ١٣٨٤ هـ

٢٧ من فبراير سنة ١٩٦٥ م

نائب رئيس الوزراء

للأوقاف وشئون الأزهر

(مهندس احمد عبده الشرباصى)

خطة الدراسة بالقسم العالى للدراسات الإسلامية والعربية :

١ — يلقى على الطلبة يومياً أربعة دروس عدا يوم الخميس ، فيلقى فيه درسان فقط ، بالنسبة للسنة الثانية ، ويجوز أن يزداد عدد الدروس إلى أربعة دروس إذا دعت الضرورة إلى ذلك وتكون هذه الزيادة بناء على طلب شيخ القسم ، وموافقة السيد مدير الجامعة .

٢ — مدة الدرس الواحد ساعة ونصف ساعة .

٣ — المواد التى تدرس فى هذا القسم هى :

(ا) فقه المذاهب ـ وتكون الدراسة فى فى السنة الرابعة مقارنة فى جميع المذاهب .

(ب) أصول الفقه .

(ج) التفسير وعلومه .

(د) الحديث ومصطلح الحديث ورجاله .

(هـ) الأخلاق والتصوف .

(و) التاريخ الإسلامى .

(ز) الأدب العربى وتاريخه .

(ح) النحو والصرف .

(ط) علوم البلاغة — البيان والمعانى والبديع .

(ى) التوحيد والعقائد .

٤ — توزيع المنهاج على السنوات الأربع .

السنة الأولى

عدد الدروس أسبوعياً ، عشرون درساً موزعة على الوجه الآتى :

فقه المذاهب :

أربعة دروس ، منها درس واحد لتاريخ التشريع وحكمته وأشهر الفقهاء ، ويدرس فى بقية الدروس كتاب من أشهر الكتب فى المذهب ، شرح الهداية للمرغبانى فى الفقه الحنفى ، وشرح المنهاج للجلال المحلى فى فقه الشافعية والشرح الكبير فى فقه المالكية وشرح الإقناع فى فقه الحنابلة .

أصول الفقه :

درسان أسبوعياً ، يدرس فيهما مختصر : شرح الورقات مع التقديم لها بمقدمة مختصرة فى أصول الفقه وماهيته .

التفسير :

درسان فى الأسبوع ، يدرس فيهما كتاب تفسير القاضى البيضاوى .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الحديث ومصطلح الحديث ورجاله :

درسان فى الأسبوع ، ويقدم الأستاذ لعلم الحديث بمقدمة ، يشرح فيها مصطلح الحديث وأهم رجاله ، ثم يدرس كتاب الزبيدى .

المنطق وأدب البحث والمناظرة :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس كتاب شرح الخبيصى ، ويجوز أن تقرأ بعض الفصول من البصائر النصيرية ، ومبادئ المنطق الحديث .

التاريخ الإسلامى :

درسان فى الأسبوع ، يدرس فيهما كتاب نور اليقين ، وتاريخ الخلفاء الراشدين للخضرى .

الأدب العربى وتاريخه :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس فيهما جزء من كتاب الكامل للمبرد .

النحو والصرف :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس فيهما كتاب شرح ابن عقيل .

علوم البلاغة :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس فيهما كتاب الإيضاح للقزوينى .

مجموع الدروس عشرون درسا فى الأسبوع .

السنة الثانية

فقه المذاهب :

أربعة دروس فى الأسبوع ، ويدرس فيها كتاب من الكتب السابق تدريسها فى السنة الأولى ، دون المقدمة المنوه عنها فيها .

أصول الفقه :

أربعة دروس فى الأسبوع ، المستصفى للغزالى ، والموافقات للشاطبى .

التفسير :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الأولى .

الحديث :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الأولى .

المنطق :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الأولى .

النحو والصرف :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الأولى .

علوم البلاغة :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الأولى .

التاريخ الإسلامى :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس فيهما تاريخ الأمم الإسلامية .

الأدب وتاريخه :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس فيهما كتاب النوادر لأبى على القالى .

عدد الدروس : اثنان وعشرون درسا .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وبعض فصول من كتاب إحياء علوم الدين للغزالى .

التوحيد والعقائد :

درسان فى الأسبوع يدرس فيهما كتاب المسايرة للكمال بن الهمام وبعض فصول من رسالة الشيخ محمد عبده .

النحو والصرف :

درسان تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

علوم البلاغة :

درسان تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

السنة الرابعة

فقه المذاهب :

أربعة دروس ، منها ثلاثة تكملة لمنهاج السنوات السابقة ودرس للفقه المقارن .

أصول الفقه :

أربعة دروس تكملة لمنهاج السنوات السابقة .

التفسير :

درسان فى الأسبوع ، تكملة للمنهاج السابق ويضاف إليه بعض المنتخبات من كشاف الزمخشرى .

الحديث :

درسان فى الأسبوع ، تكملة للمنهاج السابق ، وتلقى بعض المنتخبات من صحيحى البخارى ومسلم .

الأخلاق والتصوف :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الثالثة .

النحو والصرف :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنوات السابقة .

علوم البلاغة :

درسان فى الأسبوع تكملة للمنهاج السابق وتلقى فيه مختارات من دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة والصناعتين والعمدة لابن رشيق .

التوحيد والعقائد :

درسان فى الأسبوع ، تكملة للمنهاج السابق .

عدد الدروس الأسبوعية عشرون درساً .

السنة الثالثة

فقه المذاهب :

أربعة دروس تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

أصول الفقه :

أربعة دروس تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

التفسير :

درسان تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

الحديث :

درسان تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

الأخلاق والتصوف :

درسان وتدرس فيهما الرسالة القشيرى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

CHAPITRE I

L'OBLIGATION

Une doctrine morale digne de ce nom repose en définitive sur l'idée d'*obligation*. C'en est là l'assise la plus fondamentale ; c'est le pivot. l'élèment nucléaire autour duquel gravite tout le système éthique, et dont l'absence anéantirait l'essence même et la s bstance de la sagesse pratique. Car, s'il n'y avait pas d'obligation, il n'y aurait pas de responsabilité, et, s'il n'y avait pas de responsabilité, il n'y aurait pas de retour de justice. D'où chaos, désordre, anarchie, non seulement de fait, mais de droit et d'après le soi-disant principe moral.

On voit dans quelle direction certains théoriciens modernes (1) tendent à nous conduire.

Comment d'ailleurs concevoir une *règle morale* sans *obligation ?* N'est-ce pas une contradiction dans les termes ?

Ou bien ferons-nous de la conscience un simple instrument d'appréciation artistjque ? Mais n'est-il pas évident qu'*éthique* et *esthétique* font deux ?

Dans un sens plus profond, il est vrai, tout ce qui est *bien* est *beau*. L'inverse est-il également vrai ? Nul doute que l'idée de la vertu a sa beauté intrinsèque que les âmes goûtent quand même elle ne charmerait pas les yeux. Mais elle est encore quelque chose de plus. De par sa nature, elle est *agissant et motrice*, elle nous incite à agir pour en faire une réalité concrète. Tandis que, réduit à son expression la plus simple, le sentiment du *beau* n'a rien à voir avec *l'action* ; surtout quand son objet ne relève pas de notre volonté. Ainsi notre admiration pour la toute-puissance divine ou pour la grandeur de la voûte céleste ne nous porte pas à en créer d'autres exemplaires. Même lorsque l'artiste conçoit l'idée d'une œuvre réalisable, cette idée ne le *force* pas absolument à la mettre à excécution, mais elle l'*invite* gentiment à la réaliser quand il veut et s'il en a le loisir. Ou si elle s'impose aux uns, elle ne s'impose pas aux autres avec une égale nécessité. En tout cas, loin de contrarier les sentiments, elle les exprime. Ajoutez qu'un défaut commis dans une œuvre d'art a beau choquer les *sens*, il ne révolte pas les *consciences*. On n'est pas immoral pour cela.

(suite)

(1) Par ex, Guyau, Esquisse d'une Morale sans Obligation ni Sanction.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

"La Morale du Korân"

Par

Dr. Mohammad Abdullah Draz

(5)

III. Etude Comparée.

Il faut avouer que le plan initial de ce travail fut conçou sous une forme restreinte, n'envisageant que l'exposé de la loi morale telle qu'elle se dégage du Koran, et éventuellement de l'enseignement du prophète, qui en est le premier commentateur accrédité. Mais M. Louis Massignon, Professeur au Collège de France et aux Hautes Etudes à Paris, nous a exprimé son désir de voir cette étude porter en même temps sur certaines doctrines des écoles islamiques célèbres; et, à cet effet, il a bien voulu mettere à notre disposition les rares et précieux ouvrages de sa bibliothèque, tant manuscrits qu'imprimés. De son côté, M. René Le Senne, Professeur à la Faculté des Lettres de l'Université de Paris, nous a suggéré l'idée de confronter la doctrine morale telle qu'elle ressort du Koran avec certaines doctrines occidentales. Nous nous sommes conformés bien volontiers à leurs heureuses suggestions. Grâce à quoi, notre œuvre apparaît aujourd'hui sous une forme plus ample et plus considérable que'elle ne l'eût été. C'est en quelque sorte un trait d'union, où se rencontrent les pensées éthiques de l'Orient et de l'Occident dans une comparaison intelligente et impartiale, exemptée de toute idée préconçue et de tout esprit d'école, et ayant pour unique arbitre dans chaque controverse le juste bon sens, éclairé par des documents bien établis.

Ce rapprochement entre les différentes cultures, servira-t-il de prélude, dans le domaine pratique, à une plus grande compréhension et à un humanisme élargi, dans lequel les bonnes volontés de part et d'autre se tendront les mains pour le bien de l'humanité ?

Souhaitons-le.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

البلد الأمين

The land made Safe

« إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » . (آل عمران ٩٧ - ٩٦)

(Lo : The first sanctuary appointed for mankind was that at Becca (Mecca), a bllessed place, a guidance to the peoples, wherein are plain memorials (of Allah's guidance) ; the place where Abraham stood up to pray ; and who so ever entereth it is Safe. And pilgrimage to the House is a duty unto Allah for mankind, for him wyo can find a way thither).

(From page 5)

responsibilities of motherhood. She runs hither and thither frantically searching for a place where her offspring will be safe. She delivers the kitten and forgets everything as she licks them in her joy of fulfilment. They, on theirpart, have already begun to seek the means of sustenance and blindly grope for their mother's teats. They cannot see and they connot be helped in their quest by their mother, who cannot, like a human mother, place her nipple herself in the child's mouth. As soon as they find a teat, they suck it with all their strength, as if they knew that their very life depended upon it. Certainly no human or other being on earth taught the cat and the kitten all the varied and extremely complicated vital processes, on which the continuance of life depends.(1)

(1) The Quintessence of Islam.

(From page 12)

back to the cradle of his faith, the childhood of his Prophet ; it reminds him of the struggle between the old faith of idolatry and the new one (Islam), of the overthrow of the idols, and the establishment of the worship of the one true God. And, most of all, it bids the Muslim to remember that all his brother - Muslims are worshipping twards the same sacred spot, that he is one of a great company of believers, united by one faith, filed with the same hopes, reverencing the same thing and worshipping the same God » (1).

(1) The comment mentioned in the book of "the religion of Islam" by Dr. Ahmed-Galwash - v 11 p. 62.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

and requirements of its environment, for it is in its own environment that it must seek its fulfilment. This adjustment is brought about in two ways, which the Qur'an refers to repeatedly and describes as "taqdir" (destiny), and "hidayat" (guidance).

Taqdir means the proper assessment of something and prescribing a certain state or condition of existence for it. Nothing can move outside the limits of that fixed state. The planets cannot leavet heir orbit; the oceans cannot leave their bed; the birds cannot live in water and the fish cannot exist on land; the tropical plants cannot be transplanted in the polar regions and polar bear cannot survive near the Equator. That is the Destiny ordered by a wise and beneficent Maker. Every being is equipped for life within its environment, and similarly every environment is so ordered that its prducts and effects are according to fixed laws, so that there is stable adjustment between the environment and the beings which exist in it and life is not endangered.

Every step in life is subject to guidance, wether external or internal, of some kind and some degree. In the present context it is necessary to refer to only that aspect of guidance from the Rabbil-Alameen (Cherisher and Sustainer of the Universe) which enables all beings to seek and obtain the means of their sustenance without which all life would cease. This guidance first comes to every being in the form of instinctive revelation and then it lights the lamps of senses and understanding which give man the illusion of power and independence and lead him to imagine that he guides himself. Man has a very short memory ; he forgets that when he came into the world it was no human guidance which taught him to cry and make his lungs function or to seek his means of sustenance from his mother's breast. No man told him that his mother's nipple was his fountain of life and no man taught him to use his jaws so as to suck that nipple hard and thus to drink from that fountain.

This divine guidance, in the form of ins tinct, is given to every being so that life may go on. Take, for instance, a cat. It is her first experience of pregnancy and yet, without any external guidance, She knows that she is going to give birth to beings like herself and that she must not only suckle them, so that they may live, but also protect them till they are strong enough to look after themselves. As the moment of arrival of these new beings opproaches, she knows that the time has come for her to assume the

(*See page 14*)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

entire existence turns to their aid; the Sun and the moon, the heavens and the earth, the atmosphere and the elements, it would appear, are all in attendance to help the birth of an ant or the planting of a seed that drops from a farmer's hand.

As Soon as a being comes into existence it finds that nature has already prepared the means of nourishment and sustenance for it in the quantity, form and place best suited for that being. Notwithstanding the unparalleled pain of childbearing, the mother is filled with love for the offspring which no devotion can equal; nature has thus ensured continued existence and flowering. With an irresistible passion, the mother clasps the child to her bosom, and there the child finds its nourishment in sufficient quantity and of the right quality. The milk is at first thin because the child's stomach is weak; but as its digestion grows stronger, the milk thickens till nature dries it up altogether and thus announces that the child is ready for other less scarce and more suitable nourishment. So it is with mother's love, which is essential for the continuance of existence. Instinctively, it is at its intensest when the new born is but a helpless lump; it diminishes as the child grows stronger till it dies out altogether among the animals and is reduced almost to a memory even among human beings, with their family System.

Another striking aspect of this organisation for the continuance and fulfilment of life is its universality. The same laws apply equally to all beings, whether they are human, animal, vegetable or mineral. A piece of dry stone or a fresh fragrant rose, a tender plant or a lusty child, a humble ant or a proud elephant, an insignificant insect or a mighty man, they are all subject to the same universal cycle of helpless birth, tender infancy, strong maturity, inexorable decay and again helpless death, they disintegrate or wither or die. Different words are used but they imply the same meaning; they are different garbs to clothe the same reality; the same universal process of creation, sustenance, fulfilment and continued existence.

Even more marvellous than the ordered, provision of means of sustenance is nature's organisation of the inner capacity of biengs to utilise those means of sustenance. But for such inherent and trained capacity, all the means of sustenance would be useless and life would come to an end. Nature has, therefore, so fashioned every being and endowed it with such capacities that it is fully equipped for the conditions

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL-ZAYYAT

RAMADAN 1384	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	FEBRUARY 1965

THE QURANIC CONCEPTION OF GOD - II

- Cherisher and Sustainer of all the Worlds -

BY : MOULANA ABUL KALAM AZAD

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

Apart from the means of existence and the quantity and proportion in which they are available, one cannot but wonder at the evident order with which the entire universe is organised. Everything appears to have been created and ordered as if with one Single object, to creat life and to enable it to attain its fulfilment to its utmost capacity. The Sun is there to serve as a lamp and oven and also to lift water and store it in the heavens to be distributed when the need arises. The Sun could not, however, perform this last function with out the help of the wind, which, with its cool breath, congeals that water into rolls of cloud. The Sun then transmits heat to those clouds and makes them melt and yield water to a neady earth. The earth is there to catch that water and, with its help, to bring forth in the right form and at the right time the treasures which it ever stores in its bosom, like a woman's milk, for the furtherance of life; to every seed it offers life and to every plant nourishment, so that they, in their turn, may be the means for continuing and sustaining life so it is with every particle of existence and in every nook and corner of the Univers. Every force Seeks strength and every Cause effect, and no sooner do they begin to strive for fulfilment than

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

TRUE RELIGION

The Holy Quran says :—

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى الأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » .

(سورة البقرة ، الآية ٧٧)

"It is not righteousness that ye turn your faces to the east and the west; but righteous is he who believeth in Allah and the last Day and the angels and the Scripture and the Prophets; and giveth his wealth, for love of Him, to Kinsfolk and to orphans and the needy and the wayfarer and to those who ask, and to set slavesfree; and observeth proper worship and payeth the poor due., And those who keep their treaty when they make one, and the patients in tribulation and adversity and time of stress. Such are they woh are sincere. Such are the God-fearing."

The above Quranic verse has dealt fully with the essence of Religious principles. It mentions the principles of Islamic faith, Practical Devotions, the basis of social and national life and Moralities. Islam calls man to follow his original Nature as designed by God. As the Quran says.

« وأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

(سورة الروم ، الآية ٣)

"So set thy purpose for religion as a man by nature upright; the nature (framed) of Allah, in which He has created man. There is no altering (the law of) Allah's creation. That is the right religion, but most men know not."

We have seen in this verse that the true religion is to follow man's original nature. The Holy Quran gives a perfect constitution and an excellent guidance to mankind in all walks of life; as the Quran says :—

« وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

"This is my way, leading straight; follow it; and follow not other ways, they should scatter you from His (straight) Path."

MOHIADDIN ALWAYE

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

" There is no god but Allah, and Muhammad is the Messenger of God ". If one declares his servitude to the One God to the exclusion of any other thing, and if he declares that Muhammad is the Messenger of God, he will necessarily believe in the message of Muhammad. The belief in this message will, in turn, lead to the belief in what is contained therein such as the belief in the existence of God, His Attributes, His Angels, His Books, His Messengers, and the Last Day.

QUESTION :

What is the difference in Islam between faith and law ?

ANSWER :

Faith is the theoretical side of the religion and it is its aspect which is required in belief before any other thing. Faith is based upon clear and unquestionable texts from the religious recourses. The meanings of these texts are agreed upon by the believers unanimously since the beginning of the religious call. The faith was the first thing the Prophet called for, and also all other Prophets of God, as the holy Qur'an clearly indicated.

We mentioned before that the basic principles of faith are the belief in God, His Angles, His Books, His Messengers, and the last Day.

As to the law, it is the system of rules which God, the Almighty, legislated to organize the relationship between man and his Lord, and among people themselves.

The divine legislation has tow aspects : The first is the aspect of worship which is a manifestation of the sincerity of the believers in their approach to God. This aspect includes « عبادة » (Ibadat) or all kinds of worship. The other aspect is « معاملات » (Muamalat) which deals with all worldly transations of people in their daily life.

The aspect of worship includes Prayer, Almsgiving, Fasting. and Pilgrimage. Since these four kinds of worship show the sincerity of the believer, his obedience to God, and his preservation to the religion they were considered as the pillars of the Religion, as the Prophet said:

" Islam was built on five pillars: to believe that there is no god but Allah and that Muhammad is the Messenger of Allah, the Prayers, the Almsgiving, the Fasting, and the Pilgrimage for whom who can afford it ".

justice. If the good actions overweigh the evil ones, forgivness will follow, and vice versa.

e) The forgiven people will have the reward of abiding in Paradise, and the evil ones will be punished in Hell.

QUESTION :

What is the effect of the belief in the Day of Judgment in the behaviour and actions of people ?

ANSWER :

This belief has vital effect in our behaviour in this life. It is a fact that man is incited to act or not to act according to whether his action brings about benefit or harm to him in his life in this world. Those who belive in the reward and punishment in the life hereafter are not content with the actions that bring about quick results. They rather try to do good, and avoid evil, even if their action will not cause quick results. They will defend truth and do goodness for its own sake.

Those who do not believe in the Day of Judgment cannot choose the way of goodness, for they do not believe in either reward or punishment on that Day. If they are asked to give charity to the needy, they refuse, thinking that charity decreases their wealth with no apparent benfit. In this way, they commit every sin if it brings to them a cheap benefit in this life, with no consideration to accountability for actions on the Day of Judgment.

This shows clearly how important is the influence of the belief in the Day of Judgment on the behaviour of men in this life

QUESTION :

Is it mentioned in the Holy Qur'an that the basic principles of Islam are limited to the five ones mentioned before ?

ANSWER :

These basic principles in Islamic faith are originated in Holy Qur'an when it says :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » .

(The Messenger believes in what has been revealed to him from his Lord, and so do the believers. They all believe in God and His Angels and His Books and His Messengers . . .) And :

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلال بعيدا » .

(. . . And whoever disbelieves in God and His Angels and His Books and His Messengers and the Last Day, he indeed strays far away).

To believe in all this is summed up in these words :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

Is it possible, then, to imagine that such a person who writs such things is a prophet, or a promised messiah, or even an ordinary Muslim ?

QUESTION :

What is the fifth basic principle of Islam ?

ANSWER :

The fifth basic principle of islam is the belief in the Day of Judgment. This Day is the end toward which everyone will be returned. The Holy Quran says :

« وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى »

(And that man can have nothing but what he strives for. And that his striving will soon be seen. Then he will be rewarded for it with the fullest reward. And that to you Lord is the Goal).

The Holy Qur'an states that the life of everyone with its reward or punishment, abiding in Paradise or Hell, depend upon his course of his life in this world.

The Almighty Allah says :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

(So he who does an atom's whight of good will see it. And he who does an atom's weight of evil will see it.) And :

« فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنه هى المأوى » .

(Then as for him who is inordinate, and prefers the life of this world : Hell is surely the abode. And as for him who fears to stand before his Lord and restrains himsel from low desires : The Paradise is surely the abode).

Therefore, the belief in the Day of Judgment is the most vital force that incites man to perfection and elevation in this world in order to attain the highest grade in the hereafter. The Qur'an speaks about the kinds of enjoyment in Paradise and the ways of punishment in Hell in our wordly imagination ; because this is the only way we could understand. However, the conditions of life in the hereafter should be understood that thay are different from those of this life. We must know these important facts about the Day of Judgment :

a) On the Day of Resurrection, God will put to extinction this world and all creatures therein.

b) God will revive all people again to another life.

c) All people will be brought to account for what they did in this life.

d) The deeds of people, whether good or evil, will be weighed in

Second : The teachings of the Probhets became by time incomplete, distorted, and partly changed. Those of the Prophet Muhammad are completely preserved, clear, and unchanged.

Third : Other messages before Islam were conveyed to people according to their conditions and abilities. It was a divine lawe that God revealed His message according to the gradation of the evolution of humanity. When humanity began to reach its perfection, the prophet Muhammad was sent with the comblete message. The Islamic law abrogated previous divine laws, and Muhammad was declared to be the last of all prophets.

QUESTION :

If the Prophet Muhammad is the last Prophet, how true is the claim that Mirza Ghulam Ahmad is a prophet ?

ANSWER :

It is historically an established fact that Qadiani movement was a product of English diplomacy which was very much disturbed by the movement of Islamic strife against English colonialism under the leadership of Imam Ahmad ibn Irfan in Indian Peninsula. The English realized that the Religion is an activating force in the lives of the Muslims. They tried to find a man who sacrifices the religion to the service of English interests. Mirza Ghulam Ahmad was their man who claimed that he is the promised mes^{s}iah. To serve his masters, he declared the abolition of the religious war against the colonial power. He said in one of his books :

"Since my youth, I kept striving with my speech and my pen to turn the hearts of Muslims toward sincerity to English government, and to abrogate the idea of "Jihad" or religious strife which is adopted by ignorant Muslims. He said also : "The more my followers increase, the more the number of the believers in "Jihad" decreases. To believe that I am a messiah is in itself a denial to Jihad".

In a message to Englieh government, Ghulam Ahmad said : "I wrote scores of books in Arabic, Persian, and urdu, in which I declard that " Jihad " is unlawful against the English government which was kind to us. It is a duty on every Muslim tn obey this government sincerely. I had my books published on my own expense and distributed them in Islamic countries.

My followers are truly sincere toward the English government, and I believe that this government is a blessing for this country".

(Then, after them, we sent Moses with Our Messages to Pharaoh and his chiefs . . .).

The message of the Prophet Muhammad (peace be upon him) is general for all mankind, until the Day of Resurrection.

QUESTION :

Are the Messengers different in their nature form other people ? .

ANSWER :

The Holy Qur'an emphasised the human nature of the Messengers in more than one verse, such as the following :

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد » .

(Say (O Muhammad) : I am only a mortal like you, it is revealed to me that your God is one God ..)

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم »

(And We sent not before you any but men to whom We sent revelation...)

The only difference betweene the Messengers and other people is that the first are immune from committing sins, and that they were chosen by God to convey His messages to humankind. This in no way means that they were above the human nature. The Qur'an addresses the Prophet Muhammad by this verse in this connection :

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون » .

(And We granted abiding forever to no mortal before You. If you die, will they abide ?)

In this way, the Holy Qur'an gives its decisive position regarding those who claim the godhead of some messengers, of that they are the sons of God, or they are of both natures : human and divine. Islam is strict in its declaration that the only deity is God. The Verse says :

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » .

(Say : He, Allah, is One. Allah is He on Whom all depend. He begets not, nor is He begotten. And none si like Him).

QUESTION :

What is the difference between the message of the prophet Muhammad and that of other Messengers ?

ANSWER :

We indicated before, some of the charactristics of Muhammad's message. However, we give here More details in this respect :

First : The message of the prophet Muhammad is general to all humankind in all times, while the message of other Prophets are limited to their own peoples.

(. . . And this Quran has been revealed to me that with it I may warn you and whomsover it reaches . . .).

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء ٧ ١)

(And we have not sent you but as a mercy to the worlds).

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (سبأ ٢٨)

(And we have not, sent you but as a bearer of good news and as a warner to all mankind) ,

As to other prophets, the Quran speaks about them in terms of their being sent only to their own nations. we read in the Quran :

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه »

(we sent Noah to his own people . . .).

« وإلى عاد أخاهم هودا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .

(And to Ad we sent their brother Hud. He said : O my people, serve Allah, you have no god other than Him . . .).

« وإلى ثمود أخاهم صالحا » .

(And to Thamud we sent their brother Salih).

« وإلى مدين أخاهم شعيبا » .

(And to Madian We sent their orother Shuaib).

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه » .

not make any distinction between any of them and to Him do we submit).

Islam, also required to belive that Muhammad is the last of all prophets, and that his message is for all humankind.

The Qur'an says :

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » .

(Muhammad is not the Father of any of Your men, but he is the Messenger of God and the seal of the Prophets . . .).

And :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا » .

(. . . this day I have perfected for you your religion and completed My favour to you and chosen for you Islam as a religion . . .).

Thus, the Holy Qur'an stated that the message of the Prophet Muhammad is not only the last of all divine messages and that he is the last Prophet, but stated also that his message is general to all nations till the end of this world. We read in the Qur'an as follow :

« قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » .

(Say : O mankind ! surely I am the Messenger of God to you all . . .).

« وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم ومن بلغ » (أنعام ١٩)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

— 4 —

The Fundamental Beliefs of Islam

(4)

By : Abdul Wadood Shalaby

What is the fourth basic principle of Islamic faith ?

It is the belief in all the Prophets and Messengers sent by God to bring forth humankind from darkness into light. As Islam required its followers to believe in the Angels, who are the agents of God to His Messengers, it is also required them to believe in the Prophets who are the Messengers of God to the mankind. Those who believe in one of the Messengers should believe in all of them, and those who disbelieve in one of them are considered disbelieving in all of them. God, the Almighty says in His Holy Book :

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » .

(Lo ! Those who disbelive in Allah and His Messengers and seek to make a distinction between Allah and His Messengers and say : We believe in some and disbelieve in others ; and seek to choose a way in between — Those are truly disbelievers ; and we have prepared for the disblievers an humiliating chastisment).

Therefore, Islam demanded the belief in all Messengers and what was revealed to them. The distinction in them is a disbelief in Islam. The Holy Qur'an say :

« والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » .

(And who believe in that which has been revealed to you and that which was revealed before you . . .) And :

« قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسمون » .

(Say : We believe in God and in that which has been revealed to us, and in that which was revealed to Abraham, and Ismael and Isaac and Jacob and the tribes, and in that which was given to Moses and Jesus, and in that which was given to the Prophets from their Lord, we do

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الفهرس

صفحة

٧٦٩ أصول الفن الخطابى
للأستاذ أحمد حسن الزيات

٧٧٦ حديث الإمام الأكبر للمسلمين فى شهر رمضان

٧٧٨ التطورات التشريعية للطلاق
للأستاذ محمد محمد المدنى

٧٨٢ النظام الاقتصادى فى الإسلام
للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

٧٩٠ مقومات القيادة الناجحة فى الإسلام
للأستاذ حسن فتح الباب

٧٩٦ نفحات القرآن : جزاؤنا عند الله قائم على عدله وفضله للأستاذ عبد اللطيف السبكى

٨٠١ حول شعب الإيمان للأستاذ محمد الغزالى

٨٠٧ أثر اليتيمة فى أدب الأندلس (١)
للأستاذ محمد رجب البيومى

٨١٢ أبو العلاء والصور الشعرية
للأستاذ كامل السيد شاهين

٨١٨ كتب ظاهر الرواية
للأستاذ الفاضل بن عاشور

٨٢١ المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام - ١٣ -
للأستاذ عبد الرحيم فودة

٨٢٥ تيارات منحرفة فى التفكير الدينى المعاصر - ٤ -
للأستاذ على العمارى

٨٢٩ القوم الصوفية تأليف أ . م . م . ماكين
ترجمة الأستاذ فتحى عثمان

٨٣٠ محمد رسول الله للأستاذ مصطفى عبد الواحد

صفحة

٨٣٩ العلم بين السلام والحسام
للأستاذ على الجندى

٨٤١ ذو المروءات للأستاذ جمال الدين الألوسى

٨٤٤ إلى أى مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان - ٤ -
للأستاذ بدر المتولى عبد الباسط

٨٤٨ شريعة الصيام بين المسلمين وغيرهم
للأستاذ على الخطيب

٨٥٢ من ذكريات رمضان . معركة عين جالوت
للأستاذ محمود محمد شبكة

٨٥٦ تيار الفكر الإسلامى فى مصر - ٢ -
للأستاذ عبد الجليل شلبى

٨٦٠ النيل فى مؤلف مصرى
للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

٨٦٣ براعة التصوير فى شعر الأندلسيين
للأستاذ محمد محمد خليفة

٨٦٨ الكتب : للأستاذ محمد عبد الله السمان
(ا) التكافل الاجتماعى فى الإسلام للأستاذ محمد أبى زهرة عرض وتقديم دكتورة نعمات أحمد فؤاد - (ب) العبادات للامام المهدى

٨٧٣ الفتاوى : تقديم الأستاذ إبراهيم محمد الأصيل
أحكام شتى فى الصيام

٨٧٦ أنباء وآراء : قرار بإنشاء قسم عال للدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر
تقديم الأستاذ محمد عبد الله السمان

الثمن اربعون مليما

مطبعة الأزهر